روايات غادة

نادين قاغر

لماذا الجفاء

www.elromancia.com

مرمورية

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

غادة

لماذا الجفاء

بقلم فاغنر

«فاجئتنا كريستينا ذاليوا، وظنت أنني أنا من يغوي زوجها.. وفي الصباح وجدت نفسي في الشارع.. في بلد غريب، لا مال ولا رسالة توصية».

عض تشارلي شفته أسفا:

«أما قصتي فتختلف.. تركتني خطيبتي ونحن في طريقنا لزيارة جدتي هنا.. في مالقة.. فلماذا لا تلعبي دور خطيبتي؟ حتى لو انكشفنا فلن تكون نهاية العالم!».

لورنا تيرنت ليست مخادعة بطبيعتها.. لكن شوقها للبقاء في هذا البلد الجميل وإفلاسها.. دفعها للقبول.

لكن أيا [illegible] الجبار: ريكاردو فرديناند كونسوي [illegible]

- ١ -

تجاهلت لورنا تيرانت نظرات الإعجاب التي كانت تتلقاها من الإسباني الشاب الجالس على الطاولة المجاورة. وارتعشت قليلاً من الليمونادة المثلجة. ثم بحثت في حقيبتها عن سيكارة، وأشعلت واحدة لتسحب منها نفساً عميقاً.

حدقت، دون رؤيا، الى الشاطيء المليء بالحصى على ساحل «مالقة» والذي يحد جدران المطعم الصغير الذي تجلس فيه. حتى الآن لم تكن راغبة في الإتصال بالمطار لتحجز في رحلة العودة الى «بوسطن».. من الصعب عليها أن تصدق أنها في مثل هذا الوقت من الأمس، كانت سعيدة خالية من الهموم، تنعم بحظ سعيد لإيجادها وظيفة مناسبة لشخصيتها.. وبدا لها من غير

المعقول، وفي أربع وعشرين ساعة أن تتغير نظرتها الى الحياة!

لكن.. ماذا هناك ليزعجها؟ لماذا تحس بالخجل والتعاسة فما من شيء حصل كان غلطة منها.

وابتلعت قليلاً من الليمونادة.. وتابعت التفكير.. في مطلق الأحوال لم يكن باتريك ولوسيا طفلين لطيفين. فهما مفسودان دلالاً دون شك. وأحست لورنا بالقنوط المألوف لديها وهي تدرك أنها لن تكون بعد الآن معهما لترعاهما.

تنهدت.. بوسطن.. كانت تتمنى لو تبقى في إسبانيا على الأقل لستة أشهر، قبل العودة الى أميركا.. فهناك الكثير في بوسطن يذكرها بالمنزل الصغير في الضواحي، ودفء وأمن «البيت السعيد».. ذلك البيت لم يعد موجوداً.. ما عدا غرفة منامة في المنزل ما في ضاحية أخرى من ضواحي المدينة الفقيرة. والداها قتلا فجأة وبشكل شنيع في حادثة اصطدام جماعية على الطريق الرئيسية منذ ثلاثة أشهر. وبدت لها وظيفة مربية لأولاد دالبو الإثنين فكرة مثالية. فتعليم الولدين، ستة سنوات وأربعة، والعيش مع العائلة في «مالقة»، والهرب من الذكريات أمر راقها. الفونسو دالبو، والد الطفلين، رجل أعمال شهير في مدريد العاصمة، وهو دائم السفر، والعائلة تسكن في منطقة منتجعات من مدينة مالقة، على بعد قليل من ميناء جبل طارق. لذا.. بالإضافة الى عملها كمربية كان عليها أن تعمل كذلك كرفيقة لزوجته كريستينا.. وبما أن السنيورا دالبو حامل.. بدا مركز لورنا مؤمن، لعدة سنوات.

مضى على وجود لورنا الآن في مالقة ثلاثة أسابيع. وكانت مستقرة وناجحة في عملها، وأحبت السنيورا كريستينا دالبو. أما الزوج الفونسو، فقد كان مسافراً لمعظم الوقت، في عمله حول أوروبا، وعاد الى المنزل منذ ثلاثة

أيام فقط. وكان هذا بداية المشاكل.

لم تكن معتادة على أي نوع من ثورات الغضب.. والثورة التي اختلقتها كريستينا دالبو كانت أبعد بكثير من قدرتها على الفهم. فقد انفجر الطبع اللاتيني، الذي لم تكن تعرف عنه شيئاً، بعنف ليدمر أعصاب لورنا.. ولسبب صغير جداً..

أنهت لورنا شرابها ووقفت.. لا فائدة من الجلوس هنا تندب حظها. يجب أن تعود الى بلادها.. ما معها من مال سيكفيها لدفع ثمن التذكرة.. وهناك ستجد لنفسها وظيفة مناسبة. من سوء حظها أن آل دالبو لم يدفعوا بعد راتبها الشهري وهي تشك في أن تحصل عليه.

اتجهت نحو الباب بعد دفع فاتورتها.. ووضعت نظارة شمسية تفادياً لشمس المتوسط. وأرجعت خصلات شعرها الأشقر اللامع كالفضة الى الوراء، خلف أذنيها. ثم وضعت حقيبتها فوق كتفها وسارت فوق رصيف الجادة التي تحد البحر. لقد وجدت غرفة لها هذا الصباح في «بانسيون» صغير.. يجب أن يكون ملائماً لها الى أن تتمكن من حجز تذكرة العودة لها.

ولحقت وقع خطوات بها. فنظرت الى الخلف لتجد أن الإسباني الصغير لحق بها. فسرّعت خطواتها متعمدة.. لتجده قد سرّع خطواته كذلك، وتقدم عنها قليلاً ينظر إليها من أطراف عينيه اللوزيتين. وقال مبتسماً:

«بوا تاردي سنيوريتا.. هل هناك من خطب؟».

وفكرت لورنا أن تتجاهله.. فمعرفتها بالإسبانية محدودة كما أن لها معرفة قليلة بالجنس الآخر. كمن لو تجاهلته لتشجعه أكثر.. فهزت رأسها وقالت بلهجة باردة متحفظة:

«ناو..».

لكن الشاب تابع السير معها يراقبها بحدة.. فنظرت من

www.elromancia.com

حولها أملا في إيجاد تاكسي. ليس معها مال كثير، لكن هذه أسهل طريقة لتخلص نفسها من اهتمام الشاب غير المرحب به.

وتقدم الشاب منها ليلامس ذراعها، وقال شيئاً بالإسبانية لم تفهمه.. فهربت منه الى طرف المفرق. لن تستطيع الرد عليه لأنها لم تفهم، ولن يفهم هو بالتالي الرد بالإنكليزية. أو حتى لو فهمها فسيتجاهلها.. ماذا فيها يجلب الإهتمام غير المرحب به؟ أولاً الفونسو دالبو والآن هذا الولد. فهي تشك في أن يكون بمثل سنها.

اقترب منها الشاب ثانية، ودفعها بكتفه، حتى أنها اضطرت للنزول عن الرصيف.. نظرت إليه بغضب، لترى حركة حاجبيه وعينيه المغازلتين. فتطلعت من حولها يائسة. ثم شاهدت سيارة تاكسي قادمة من الإتجاه الأخر. ولإنشغال فكرها بالخلاص، لم تتوقف لتتأكد من عدم وجود سيارات أخرى في الشارع.. وهكذا أصبحت في منتصف الشارع في طريق سيارة فخمة كبيرة. وسمعت صوت صرير الإطارات وقد أوقفتها المكابح، وأدار السائق المقود ليتجنبها.. وأحست لورنا بالجانب الأقرب من السيارة يضرب وركها ليرميها عائدة الى المفرق، ليرتطم وركها على حافته ثم ترتمي الى الأرض لعدة لحظات، مذهولة.

سمعت جلبة الأصوات المهتاجة الغريبة عنها، بعد تجمع جمع صغير.. فحاولت الوقوف على قدميها مهتزة. لم تلاحظ مطلقاً أن السائق نزل من السيارة الفخمة، وصفق الباب بنفاذ صبر متوحش. وتقدم من الجمع، يدفع بالمتفرجين عن جانبيه بعجرفة، وتقريباً جرّ لورنا لتقف على قدميها. بيدين قاسيتين غاضبتين. لكنها لاحظت أنه رجل شديد السمرة وجهه نحيل، موسوم بأثر جرح أبيض بشع،

على طول خده الأيسر تقريباً، ليعطيه مظهراً شيطاناً غريباً، يتماثل مع الغضب المنتقم الذي يصبه عليها.

وصاح وهو ينظر إليها:

«ديوس.. ! إيسنا مالوكو؟ هل أنت بخير؟».

مررت لورنا يدها على جبهتها، بجمع شتات شجاعتها ثم قالت بصعوبة:

«أنا.. أنا.. أميركية.. سنيور.. وأسفة لأنني أخفتك!».

«أسفة! أنت أسفة؟ سنيوريتا هل من عادتك محاولة قتل نفسك؟».

إرتجفت لورنا بعد أن استوعبت ما كان سيحدث لها:

«أنا.. قلت لك أنني أسفة سنيور. ويجب أن تعلم أنني لم أكن أحاول قتل نفسي».

ترك كتفيها واستقام:

«ربما سنيوريتا.. كذلك كدت تنجحين! أنصحك في المستقبل أن تحذري أكثر عندما تقطعين الشارع!».

تمكنت من الإبتعاد قليلاً عنه.. تتساءل أين هو ذلك الشاب الذي كان يلاحقها. ثم قالت:

«لو.. لو سمحت لي..».

لكنه قاطعها قائلاً:

«تعالي سنيوريتا.. بما أنك غريبة في بلادي، سأرافقك الى الفندق. كي لا يقع لك حادث آخر».

«أوه.. لا.. شكراً لك، لكن لا!».

«أنا مصرّ».

«وأنا كذلك. يا إلهي هل كل الإسبان لا يفهمون كلمة لا كرد؟».

فضاقت عيناه، وفكرت أنه أكثر رجل جذاب قابلته.. لم يكن وسيماً بكل معنى الكلمة، لكنه طويل نحيل،

www.elromancia.com

يتحرك برشاقة تشير الى صحة جيدة. جرحه هو الوحيد النافر عن مظهره، ومع ذلك فإنه يزيد فسحات وجهه سخرية لاذعة هي في حد ذاتها تحدي.

تذكرت يدا الفونسو دالبو الناعمتين، وجسده المكتنز قليلاً.. فأحست باشمئزاز مفاجيء وهي تقارنه بهذا الرجل.. الذي سمعته يقول:

«حسن جداً سنيوريتا.. سأتركك لنفسك. بما أن هذه هي رغبتك!».

عند تلك اللحظة شاهدت وجهاً مألوفاً يقف عند الزاوية، فغيرت رأيها.

«سنيور.. أنا.. هل لي أن أعاود الإستفادة من اقتراحك؟».

فتفحصها الرجل، بشكل مهين تقريباً، للحظات مما جعل لورنا تتمنى لو أنها لم تكلمه.. ثم رفع كتفيه:

«كما تشائين».

فهزت برأسها ولحقت به الى السيارة الفخمة، بساقين مرتجفين. أحست بعيني الإسباني الشاب تلاحقانها من حيث يقف.. فتسلقت الى السيارة بإرتياح.

قبل أن تصعد السيارة لاحظت رسماً لدرع فضي فوقه كتابة قرمزية.. لكن الباب أقفل عليها قبل أن تقرأ الكلمات. وتسائلت عما يعنيه ذلك الشعار، ومن يكون هذا الرجل. لكنها أحست بالتعب والقلق ورغبة غريبة في البكاء.

استدار الرجل من أمام السيارة ثم صعد الى جانبها. وأدار المحرك.. أحست لورنا بالحرارة فجأة، أخذت تداعب حمالة حقيبتها... مضى عليها زمن طويل لم يجعلها رجل تضطرب كما هذا الرجل، لمجرد نظره إليها بعينيه السوداوين. كذلك السيارة.. رائعة، فخمة بحجم

صالون، مع ساعة سرعة تصل أرقامها الى سرعات خيالية. وسمعته يتمتم:

«فندقك سنيوريتا.. أين موقعه؟».

فابتلعت أنفاسها:

«شارع الملك فرديناند.. انه في الواقع بانسيون صغير!».

«آه..!».

وأدار مقود السيارة الى منطقة مكتظة، ثم ترك المقود يتزلق من تحت أصابعه برشاقة خبير. فأسندت لورنا رأسها الى جانبها، وبدأت الأفكار الجنونية تدير ذهنها.. هل سيحاول هذا الرجل مغازلتها.. وبخبرة.. هل تثير يداه القاسيتان والناعمتان معاً تجاوباً متشوقاً منها. وسمحت لنفسها بأن تبتسم لأفكارها، ثم عضت على شفتها بعد أن لاحظت بسمتها.. وسألها ببرود:

«هل تجدين شيئاً مسلياً لك سنيوريتا؟».

فهزت رأسها:

«لا.. لا شيء سنيور».

وركز اهتمامه على الوصول الى شارع الملك فرديناند. ثم توقفت السيارة عند باب البانسيون. فنزلت من السيارة بسرعة دون انتظار المساعدة التي هرع ليقدمها لها بكل أدب.

«شكراً.. شكراً لك سنيور. وأنا أسفة لإزعاجك!».

فهز رأسه:

«لا شيء يستحق الشكر سنيوريتا.. على كل الأحوال، أقترح عليك أن لا تشجعي الشباب عندنا كثيراً».

فحملقت لورنا به.. هل كان على علم بما حصل؟

فابتسم بكسل وبانحناءة خفيفة عاد الى سيارته. فضمت قبضتيها غاضبة واستدارت نحو البانسيون. لقد فات الوقت

www.elromancia.com

الآن لترتيبات السفر، وعليها الإنتظار حتى الصباح لتشعر بأنها طبيعية أكثر.

بعد ساعة، كانت قد غيرت ملابسها وتركت البانسيون لتبحث عن وجبة طعام. . كانت تقاوم نفسها كي لا تعترف بأنها كارهة لمغادرتها إسبانيا. . هناك شيء حول هذا المكان الذي سحرها. وكذلك كرهت فكرة الرجوع الى الطقس المكفهر والشوارع الضيقة الفقيرة في ضواحي بوسطن. في هذا البلد الكثير من الحياة والألوان. الكثير مما يهم الباحث التاريخي.

دخلت حديقة عامة صغيرة، في وسطها بركة ماء ونافورة على الطراز الأندلسي القديم، يرتفع ماءها لامعاً.. والشمس تتخلل رذاذ الماء لتحوله الى مئات من الألوان المختلفة. وجلست على حافة البركة، تراقب الأمهات وأطفالهن. أخذت تتساءل ما إذا كان هناك فرصة أمامها لتحصل على وظيفة أخرى في إسبانية. ولم يبدو لها هذا ممكناً خاصة وأن آل دالبو لم يعطوها أي كتاب توصية.

www.elromancia.com

- ٢ -

أحست بشاب تقدم منها ليجلس على حافة البركة الى جانبها. فتوترت. . لن تتحمل أي موقف مزعج آخر. فوقفت لتبتعد، لكن الشاب وقف بدوره فتواجها:

«لورنا!».

«تشارلي!».

حدقت لورنا بتشارلي ماك كاين بحرارة أكثر مما كانت تظهره عادة. . لكن سرّها أن ترى أمامها وجهاً مألوفاً. صحيح أن تشارلي لا يبدو أميركياً فهو أسمر، أسود الشعر، ولو أنه ليس بسمار الرجل الذي قابلته. . لكن على الأقل هو صديق. وابتسم لها تشارلي قائلاً:

«لورنا تيرانت. . ! ماذا تفعلين في إسبانيا؟».

«كنت أعمل».

«كنت؟ لماذا؟ وماذا حدث؟ هل فقدت عملك؟».

«شيء من هذا القبيل.. هل أنت هنا في إجازة؟».

«تقريباً. إنها قصة طويلة.. إسمعي لماذا لا نتناول شراباً معاً؟ أعني لأجل الأيام الماضية. فأنا سعيد لرؤيتك ثانية!».

فترددت، علاقتها به كانت قصيرة الأمل، وليس لديها رغبة لتجديدها:

«أوه لست أدري تشارلي..».

«أوه.. هيا بنا لورنا.. بعض الموسيقى، والذكريات، غريبان في بلد غريب.. هيا.. دون قيود.. حقاً!».

«أوكي تشارلي.. لفترة قصيرة فقط.. كيف كانت أحوالك؟».

«عظيمة.. وأنت؟».

«أوه.. لا بأس».

جلسا في مقهى طويل معتم الإضاءة، على مقعدين مرتفعين حيث يقدم الشراب فوق طاولة مشتركة طويلة. وطلبا الليمونادة المثلجة.. وقال لها:

«هل عرفت أنني كنت خاطباً».

«لا.. ومن كانت الفتاة المحظوظة؟».

فضحك:

«سوزان هولاند.. لقد فسخنا الخطوبة اليوم».

«ماذا؟».

أجل.. كنا هنا معاً.. جئنا لمقابلة جدتي.. لكن سوزان تبالغ في كل شيء.. تريد المال دائماً.. لأسباب مختلفة. بالأمس صرفت أكثر من ألفي «أسكودس» على فستان سهرة!».

«آه.. هكذا.. وأنت اعترضت».

«أنت محقة.. لقد اعترضت.. فانفجرت غضباً..

واستلمت الخاتم هذا الصباح».

ارتشفت لورنا شرابها قبل أن تقول:

«أوه.. هذا أمر مؤسف تشارلي.. هل تحطم قلبك تماماً؟».

فشخر تشارلي:

«غير ممكن! لقد اكتفيت منها لوقت طويل».

«أوه.. هيا.. أنت غاضب الآن.. وستتمالك نفسك قريباً».

«أشك في هذا.. لكن ما خطبك؟ ماذا تفعلين بتجوالك في مدينة غريبة لوحدك ليلاً؟».

«لم يحل الظلام بعد.. أوه.. وقضي لعقده يا تشارلي.. ولن تهتم بها».

«وقد أهتم».

«حسناً.. لقد جئت الى هنا لأعمل كمربية لطفلين، باتريك ولوسيا دالبو».

«دالبو؟ هل قلت دالبو؟».

«أجل.. ولماذا؟ أتعرفهم؟».

«جدتي تعرفهم.. تابعي قصتك. آسف لمقاطعتك».

«ربما لأنك تعرفهم يجب أن أوقف القصة هنا».

«إنهم أصدقاء جدتي وليسوا أصدقائي.. فتابعي كلامك لورنا».

«حسناً.. كل شيء كان يسير بنعومة.. الى أن عاد ألفونسو دالبو من رحلة عمل.. وأظنه أغرم بي. لا تسألني لماذا، فأنا لم أشجعه».

«يا حلوتي.. بمظهرك الجميل، الرجال لا يحتاجون الى تشجيع».

نظرت إليه لورنا نظرة متحفظة قديمة الطراز.. ثم تابعت:

www.elromancia.com

«طبعاً . . لم أكن أعلم بالأمر الى أن حشرني ليلة في الممر خارج غرفتي يا إلهي . . لقد اعتقدت نفسي سأعاني قدراً أسوأ من الموت. وكدت أمزق شعره عندما فاجئتنا كريستينا دالبو. وبالطبع ظنت عكس الحقيقة، وأنني أنا من يحاول إغواء زوجها. أنكرت بالطبع، لكن دون جدوى. وهذا الصباح وجدت نفسي خارج المنزل. ذلك الخنزير. . الفونسو. . كان بإمكاني قتله! تنحى جانباً وترك كريستينا تصخب وتصيح وكأنها الحيوان الجريح!».

«يا مسكينة! ماذا ستفعلين الآن؟».

«أفعل. .؟ ساعود الى بوسطن، كما أعتقد، وليس أمامي شيء آخر. فهم لم يعطوني كتاب توصية ولا دفعوا لي مرتبي!».

لف تشارلي ذراعه حول كتفيها مواسياً:

«هكذا إذن! وأنا كذلك لست واثقاً مما قد أفعل».

«قلت أنك ستزور جدتك».

«قلت أنني وسوزان سنذهب لزيارة جدتي، ولن أذهب الآن وحيداً».

«لماذا؟».

«لأنني حتى الآن مصنف كالإبن الضال في العائلة. . الوحيد غير المتزوج وما الى ذلك من كلام. وعندما سمعت بخطوبتي من سوزان طارت من الفرح، فحصلنا على دعوة منها. وستغضب لإنهائها».

«لكنها ليست غلطتك!».

«قولي هذا لها! إنها تحاول تزويجي منذ سنوات».

«حسناً. . لماذا لا تتصالح مع سوزان؟».

«لا أظن هذا. . ولن تكلمني مطلقاً».

فابتسمت له بلطف.

«أعتقد من الأفضل أن نحجز كلانا للعودة!».

عض تشارلي على شفته:

«كنت أتوق لهذه الفرصة. . والشاطيء حيث تعيش جدتي هنا مكان جميل. . إنه قصر بأملاك واسعة في الواقع».

«وكيف صدف أن تكون جدتك إسبانية؟».

«والدتي إسبانية. . هربت مع والدي عندما كانت في الثامنة عشرة. ولفترة طويلة نكرتها عائلتها. وعندما مات جدي، أعادت جدتي التفكير، وسامحت أمي. . عندها قُدمت أمامهم للتعارف. . وظنت جدتي أنها قد تحاول إدارة حياتي لي حيث فشلت مع أمي».

فقطبت لورنا:

«يبدو هذا قديم الطراز».

«أنا أؤمن بهذا. . فالأمور هكذا تسير على نفس المنوال منذ مئات السنين».

«وماذا ستفعل الآن؟».

«القليل في الواقع. . أنظري. . هل يمكن أن تذهبي معي الى العزبة بوصفك خطيبتي؟».

«أفعل ماذا؟».

«أوه. . رسمياً فقط. مجرد معروف معي. سيوفر هذا عليّ الكثير من الشرح. ولن تضطري للعودة دون إجازة».

«أوه تشارلي. ! لا أستطيع فعل مثل هذا!».

«لماذا؟ أين الضير في هذا؟».

«حسناً. . لا أرغب في خداع جدتك هكذا!».

«لماذا؟ أعني. . لن يضر هذا بأحد. . وبإمكانك النجاح كخطيبتي لو تعاونّ معاً».

لورنا تفكر بما سترد. . تابع:

«أعلم أن الأمر صعب. لكن كل ما أحاول إظهاره لك هو قدرتنا على النجاح دون أن نواجه أية أسئلة».

www.elromancia.com

فتنهدت لورنا:

«أجل.. أفهم هذا. لكن تشارلي، ليس المهم أن تقدم لهم خطيبة. أعني بإمكانك الذهاب لوحدك ومواجهتهم».

«صحيح.. ولكن جدتي إمرأة عجوز.. ولا أرغب في إحباط أملها».

«وماذا سيحصل لو وافقت معك وذهبنا الى العزبة؟ أعني عائلتك، الأمر بنفس السوء لفسخ خطوبتك الى سوزان».

«أعلم، ولكنني سأرتب أمر كشف هذا بعد عودتي الى أميركا.. ومئات الأميال تفصلني عن العاصفة.. أنظري لورنا.. لقد كنت أتشوق لهذه العطلة منذ زمن بعيد، وإذا ذهبت الآن الى هناك دون سوزان سأضطر الى إمضاء ما تبقى من العطلة في شرح ما حصل».

فضحكت:

«أنا واثقة أنك تبالغ تشارلي».

«صدقيني.. لا! على كلٍ ماذا ستخسري؟».

«لا شيء.. والأمر ليس هكذا. لكن ماذا لو عادت سوزان للظهور؟».

«لن تفعل.. إنها تتوقع أن أركض وراءها. كما أفعل عادة».

ونظرت الى ساعتها:

«لا فائدة تشارلي وعليّ أن أذهب».

«لورنا.. أرجوك! ألن تغيري فكرك؟».

«وكيف هذا؟ لست من النوع المخادع!».

«ولكن ما هي الخدعة هنا؟ أعني، حتى ولو اكتشف أمرنا فلن تكون نهاية العالم».

بالرغم من كل شكوكها.. كان الإغراء موجوداً.. كما شرح تشارلي الأمر، خطيبته قد تكون أياً كان. وطالما

تستطيع التعود على أن يناديها سوزان ويقدم هو بالخطوات الأولى، فهي لا ترى أي ضير. وسألها بعد أن طلب كوبين من الشراب:

«أين تقيمين الآن؟».

«في بانسيون عند شارع الملك فرديناند».

«جيد.. إنه لا يبعد عن مكان إقامتي. ويمكن أن آخذك من هناك صباحاً».

«إنتظر.. مهلك لحظة.. لم أوافق بعد».

«ولكنك ستوافقي».

«إذا.. وأقول إذا.. قررت أن أجيء معك. فلن تحاول مطلقاً أن تحول هذه الخدعة الى أمر حقيقي.. أليس كذلك؟».

«بالطبع لن أفعل. على كل الأحوال لماذا أصبحت بغيضاً لك هكذا؟».

«لست بغيضاً لدي تشارلي.. الأمر ليس هكذا. إننا لسنا مناسبين لبعضنا.. تعجبني.. لكنني لا أستطيع أن أحبك».

«حسناً.. لا بأس.. لست مضطرة لهذا. والآن الى التفاصيل..».

فتنهدت:

«لا.. مهلك! أعطني فرصة للتفكير. لن أستطيع القبول في لحظات. إنه أمر خطير. ثم إذا اختفيت فجأة مع رجل غريب، فالوكالة المسؤولة عن توظيفي في بوسطن سترتاب عندما تعلمهم السنيورا دالبو أنها صرفتني من العمل لمحاولتي إغواء زوجها، ولم أعد الى الظهور».

«وهل يهمك هذا؟ أعني.. هناك الكثير من الوكالات المشابهة في أميركا».

«أجل.. ولكن.. أوه تشارلي.. أتمنى لو أستطيع

www.elromancia.com

الذهاب معك كصديقة.. أو شيء ما».

فابتسم:

«يا إلهي.. لم أكن لأظن أنك متزقة هكذا!».

«لست متزقة.. أوه.. حسناً.. حسناً.. سأجرب. وسيكون الأمر كالمغامرة.. أتقسم أن جدتك لن تستدعي الفيس حال وصولنا؟».

فضحك تشارلي، مع ارتياح، وقال:

«لا بالطبع.. لا. طالما أنا خاطب.. سيكون هذا بجودة الحقيقة لها».

انها ليست بطبيعتها فتاة مخادعة.. والتوق للبقاء وحده، في هذا البلد الساحر، هو من أمال الكلفة الراجحة باتجاه تشارلي.

في الصباح التالي قاد تشارلي السيارة ولورنا في صحبته خارج مالقة، عبر أجمل ريف شاهدته في حياتها. كانت تريد أن تكون الرحلة على مراحل.. لتستكشف الريف وهي تمر به.. لكن تشارلي لم يكن في تفكيره سوى وجهته. لذا بقيت صامتة. لفترة تبع الخط الساحلي، ثم استدار غرباً على الطريق الى غرناطة.

كان تشارلي قد قال لها أن العزبة تحتل مساحة ضخمة من الأرض تمتد من البحر حتى سفوح سبيرا نيفادا ما بين مفترق الطرقات الموصل أحدها الى غرناطة. حيث تزدهر زراعة البرتقال والزيتون والكرمة، فوق سفح جبل متدرج يحدها من الأسفل نهر جنتيل. بينما تشارلي منكب على شؤون عائلته سألته لورنا:

«هل لدى جدتك مدير يدير لها العزبة؟».

«هناك مدير يدير العزبة، لكن جدتي في الواقع لا تملكها. إنها للعائلة.. تمر من الأب الى الإبن..».

«لكن أمك.. أعني.. ظننت أن أمك هي إبنة جدتك

الوحيدة».

«آسف لعدم شرحي لك. فلامي شقيق، خالي ريكاردو، ومن الطبيعي أنه هو مالك العزبة الآن».

«هكذا إذن.. أظن من الأفضل لك أن تخبرني المزيد عن عائلتك.. فكل ما كشفته لي الآن هي الأشياء التي يعرفونها عن خطيبتك السابقة. وستكون فكرة جيدة لو عرفت ما كانت تعرف سوزان عنهم».

فتجهم وجهه:

«لم أكن أرغب في إرباكك، هذا كل شيء. أعني.. ليس هناك الكثير لتعرفيه. خالي يعيش في المنزل، طبعاً، وهو أرمل. له إبنة إسمها إستاليتا، في الثالثة عشرة من عمرها، كما أعتقد».

«تابع كلامك.. من بعد يسكن في العزبة؟».

وبدا عليها السخط فصاح:

«توقفي عن التوتر! ليس الأمر أسوأ من مقابلتك أية عائلة أخرى».

www.elromancia.com

- ٣ -

ومرت بهما السيارة فوق النهر والساقية تتدفق بلطف تحت ظلال أشجار الليمون، والصنوبر، وكروم العنب.. مرا بقرى كل كوخ فيها مبني بشكل يختلف عن الآخر وبألوان مختلفة كلها ضمن محيط أخضر وأزهار براقة الألوان.

توقفا للغداء في نُزل يطل على الوادي.. خلال الطعام عاد تشارلي يتحدث عن العزبة، وبدا عليه أنه يريد أن يقول لها شيئاً. فسألته:

«ما بك؟ ماذا هناك لم تخبرني به بعد؟».

فاحمر وجهه:

«لم أقل أن هناك المزيد».

«أعلم، ولكنني أرى في وجهك أن هناك شيء ما. وه

المؤكد أن له علاقة بأمرنا هذا».

«حسناً.. ليس الأمر بكثير. حقاً يا لورنا.. حسناً.. في الواقع جدتي كونتيسة أرملة نبيل».

«ماذا؟ كونتيسة! هذا يعني أن خالك..».

«أجل خالي هو الكونت ريكاردو كونسويلو ديلاغراناداه».

فهزت برأسها:

«هكذا إذن.. وناسف حقاً أننا سنتجو بأمرنا؟ وفي مثل هذه الظروف؟ أظن أن الكونت سيكون أكثر تدقيقاً حول الفتاة التي سيتزوجها إبن أخته».

«و؟».

«وأنا لست من هذا النوع! أعني.. حقاً تشارلي، ظننت الأمر سهلاً، حسب ما قلته.. وكلما اقتربنا بضعة أميال تكشف لي وضعاً جديداً.. لماذا لم تشرح لي كل شيء منذ البداية؟.. لكنت رفضت منذ البداية».

فرد بخشونة:

«كان يمكن أن أدعك تكملي المشوار دون إخبارك.. أظن أن تصرفك سخيف. هل ستكملي الطريق معي أم لا؟».

«لا.. لن أكمل. أما لما قلته لي، فانت تعرف أنك لن تتمكن من عدم إخباري بالحقيقة قبل أن نصل الى العزبة. وأعتقد أنك لم تخبرني لأنك تعرف ما ستكون ردة فعلي.. يا للسماء! عندما قلت أن جدتك تعرف عائلة دالبو كان يجب أن أعرف أنها مختلفة».

«وماذا في ذلك؟ ما الذي تغير؟ العزبة لا زالت موجودة، وستبقى، جدتي لا زالت إمرأة عجوز، ولها رغبة في أن تزوجني قبل أن تموت.. ولا أرى أي سبب للخوف».

«ربما أنت لا ترى.. ولكنني أرى. انظر تشارلي.. ليس لدي الرغبة في قضاء إجازة مع أرستقراطيين.. أكره

www.elromancia.com

الرسميات. ولن تكون هذه عطلة إطلاقاً».

«لكنهم ليسوا بهذه الرسميات».

«أوه.. لا؟ أعرف تماماً كيف تكون العائلات الإسبانية رسمية!».

«إذن سنعود».

«أجل.. وأنا آسفة تشارلي».

فتمتم بغيظ:

«وكذلك أنا.. آسف الى أقصى الحدود».

ووقف تشارلي فجأة، بينما كان رجل حسن يتقدم منهما وصاح:

«ثيو ثيودور! كم من الرائع رؤيتك!».

فابتسم الرجل، وابتلعت لورنا ريقها.. إنه خال آخر لتشارلي غير خاله ريكاردو.. وأمام ذهولها تابع تشارلي:

«ثيو ثيودور، أريدك أن تقابل خطيبتي سوزان. سوزان حبيبتي هذا خالي الأكبر ثيودور.. شقيق جدتي الأصغر!».

وترددت لورنا لحظة تحدق بالرجل ثم وقفت، وأكملت التعارف. وردت على أسئلة الخال ثيودور، تتصرف وكأنها سوزان.

لم يجلس ثيودور كارليون معهما كثيراً، فهو كان في طريقه الى قرطبة، والمنزل هنا محطة طريق للمسافرين.. إنه رجل مسالم فاتن، دون فضول مزعج حول شؤون إبن إبنة شقيقته.

والتفتت لورنا الى تشارلي ساخطة:

«لم يكن لدي خيار آخر سوى أن أظهر أنك كاذب».

«هذا صحيح.. ولقد القيت كل اعتمادي كي لا تخذليني. فالخال ثيودور سيروي لجدتي الأمر عنك. وستغضب إذا عرفت أننا في المنطقة ولم نزرها».

ووصلا الى العزبة في وقت متأخر من بعد الظهر. ومرا

في أراضي المزرعة لفترة طويلة، يقتربان من الخط الساحلي طوال الوقت. الساحل هنا مليء بالخلجان الصغيرة والتجاويف الكهفية الرملية ترتطم فوقها المياه الزرقاء اللازورية لمياه المتوسط. ولم تستطع لورنا نكران السعادة التي أحست بها. حتى توقعها مقابلة الكونتيسة الأرملة لم يخفف من حماسها.

باقترابهما من منزل ديلاغرانادا، حبست أنفاسها من الذهول. فأمامها بين أشجار الصنوبر، وكأنها قصر من قصور أرض الخيال، هناك قصر صغير فاتن، تزينه الأبراج وتحيط به الخنادق، أحجاره الرمادية انقلبت الى لون زهري شاحب تحت أشعة الشمس.

وشهقت:

«أوه تشارلي! لا يمكن أن يكون هذا..».

«أجل إنه كاستيلو غرانادا! هل أعجبك؟».

«لكنك لم تقل لي.. لكن كان من المفترض أن أعرف أن شيئاً مثل هذا سيظهر في النهاية. ومن المؤسف أن سوزان لم تشاهده. وإلا لما تخاصمت معك مطلقاً».

«أجل.. لكن على كل الأحوال، الأماكن الجميلة، والأشياء الجميلة، ليس لها فائدة لا لسوزان ولا لي».

«وماذا تعني؟».

«لا بد أنك تعرفين أن المحافظة على مثل هذا القصر يكلف المال الكثير!».

«أتعني أن لو كان القصر لك لبعته؟».

«ربما لا.. لو كان لي دخل الخال ريكاردو.. لكن لو ترك القصر لي مع مال قليل فيجب أن أبيعه.. فأنا لست من النوع العاطفي وكما قلت لك، أنا أتمتع بصرف المال، لا أن أتفرج عليه!».

ومرت السيارة في طريق داخلي طويل مرصوف بالحصى

أمام واجهة القصر الفخمة، ثم دخلت فناء، ثم هبط جسر معلق يقود الى الفناء الداخلي للقصر. الباب الحديدي المقطع لم يعد قيد الإستعمال. لكن لورنا بخيالها النشيط استطاعت تصور منظره كما كان يوماً. القصر مبني في موقع إستراتيجي، التلال من وراءه تشكل دفاعاً طبيعياً ضد أي هجوم من الخلف.

وقطعت السيارة الجسر، وأصبحت في الفناء الداخلي. وأطفأ تشارلي المحرك ونظر الى لورنا مشجعاً، فاحست بالتوتر، لكنها نزلت من السيارة بسرعة دون تفكير. لم يكن هناك أحد في الفناء. فنظرت الى تشارلي متسائلة:

«إنها وقت «السياستا» أي القيلولة. بعد الظهر هنا عادةً وقت هادي».

واحست لورنا أن هناك من يراقبهما، إنها فتاة صغيرة تقف في ظل باب خشبي من السنديان الضخم. لا بد أنها إستاليتا إبنة الكونت. وأخرج تشارلي الحقائب من السيارة ونظر نحوها وقال:

«مرحباً إستاليتا! ألن تأتي لتحيينا؟».

فهزت إستاليتا كتفيها دون اكتراث وخرجت على مضض من مخبئها.. في نور الشمس استطاعت لورنا الآن رؤية أنها سمراء، شعرها طويل وأسود ملفوف بجديلة واحدة. ترتدي تنورة مشجرة قصيرة وبلوزة بيضاء وفي قدميها صندال مفتوح. وكانت تشابه فتيات الفلاحين الذين مرا بهم في رحلتهم من مالقة. لكن وجهها كان جذاباً، لكن تعبيراته وقحة، وأحست لورنا بالخوف من أن تكون إستاليتا تبعث الخوف أكثر من جدتها. فقد بدت أنها دائماً تحصل على ما تريده.. وبكونها الطفلة الوحيدة في المنزل لا يشرف عليها سوى عجائز، فلا بد أنها مدللة مفسودة.

وابتسمت لورنا.. لكن الفتاة لم ترد، بل وضعت يديها

على خصرها، وقالت بوقاحة:

«من المفترض أن تكون هنا بالأمس.. بريمو تشارلي».

إنكليزيتها كانت جيدة، ونظرت لورنا الى تشارلي لترى ما هي ردة فعله. فهز كتفيه ورد:

«بما أن جدتي هي الوحيدة التي يجب أن أعتذر منها، فلا أظن أن هذه الملاحظة من شأنك إستاليتا. وأرى أن أخلاقك السيئة لم تتحسن أبداً».

فحركت إستاليتا أنفها بفظاظة، واستدارت. فأحس تشارلي بانزعاج لورنا فقال:

«إستاليتا! رجاءاً قولي لكارلو أننا هنا وأن الحقائب بحاجة لمن يعتني بها. وهل لك أيضاً إبلاغ كاترينا.. وقبل أن تزيدي من قلب شفاهك، أحذرك أن المزيد من هذه التصرفات، سأقولها لوالدك.. مفهوم؟».

فهزت الفتاة كتفيها:

«والدي ليس معنا.. وسيخيب أملك».

«لكنه سيعود، لذا أسرعي لتنفيذ ما قلته لك!».

وبدا على إستاليتا رغبة في الجدال، ثم استدارت لتدخل عبر الباب الى داخل الفناء.

فعلقت لورنا:

«كم هي فاتنة! وهل هي «مسطرة» لما سأجده هنا؟».

«بالطبع لا.. لكنها لا تحب وجودي هنا. أنها طفلة تحب التملك. وعندما يكون والدها غائباً، كما هو غالباً، تحتكر كل وقت جدتنا لنفسها.. وبما أننا الحفيدان الوحيدان فما من شك أن أهميتها تخف وأنا هنا».

«آه.. فهمت.. وأظن عندما يكون والدها هنا لا تصبح أنت مصدر إزعاج لها».

«تقريباً، وعندما يكون ريكاردو هنا لا يعود لأحد وجود إنها تحبه.. وتغار عليه. وأظن أن واقع عدم معرفتها

www.elromancia.com

لوالدتها له تأثير رئيسي».

«ألا تعرف والدتها..؟ لماذا؟».

«ماتت وإستاليتا في الثالثة من عمرها.. وكان لها مربية، وكانت ترى أمها في أوقات محددة. والنساء النبيلات هنا لا يقيضن أوقاتهم في رعاية الأولاد».

«إذن، يفوتهن الكثير. وعندما سيصبح لي أطفال، أنوي العناية بهم بنفسي. مهما كانت ظروفي».

فضحك:

«ليست كل النساء مهتمات بأولادهن تعلمين هذا؟».

«أعلم.. لكن من الخطأ إيكال المشاعر العزيزة الى شخص آخر. أظن أنني قديمة الطراز».

«ربما.. وربما هو أمر جيد.. وأنا واثق أن هذا ما ستظنه جدتي. إنها لم تتفق مطلقاً مع جانيت».

«جانيت؟ تعني زوجة خالك؟».

«أجل.. جانيت كانت فرنسية.. فلندخل الآن».

دخلا من الباب الغربي الى ردهة مرتفعة مقنطرة. عرفت على الفور أنها القاعة الرئيسية للقصر. الجدران الحجرية مليئة بالسجف والسجاد. بينما كان فوق جدار المدفأة درع فولاذي لفارس محارب يزينه. وفي نهاية القاعة سلم خشبي محفور يقود الى رواق معمد يدور حول القاعة كالشرفة. الأرضية الحجرية لمّاعة ومغطاة بسجاد قاتم الألوان، وبعض الجلود تتوالف بشكل مكتمل مع محيطها. الأثاث كله من الخشب المحفور، ثقيل ومحتفظ برونقه ونظافته مثل بقية ما يحيط به.. صحيح أنه جميل جداً.. لكنه ليس فخماً. الإضاءة كانت متوفرة بشمعدانات كهربائية. موضوعة بتعليقات فوق الجدران.. واعتقدت أن الكونت، خال تشارلي، يبقيها هكذا على حالها بقصد إبراز طرازها من العهود الوسطى، بينما غيره كان من الممكن أن

يحولها الى حديثة الطراز.

وقال تشارلي بخشونة:

«منظرها إقطاعي قديم.. أليس كذلك؟ لكن إطمئني ليس كل المنزل هكذا».

ثم ظهر شخصان، تتبعهما ببطء إستاليتا. لا بد أنهما كارلو وكاترينا.. كان عجوزاً.. لكن كاترينا إسبانية في منتصف العمر. ترتدي الأسود بالكامل تنورتها أطول من أي تنورة شاهدتها لورنا في حياتها. ولإكمال الصورة، كان يتدلى من حزامها الجلدي حلقة مليئة بالمفاتيح، وكان على لورنا كبح إبتسامة.

وتحدث تشارلي بحرارة الى كارلو وهو يكمل طريقه لإدخال الحقائب. ثم حيا كاترينا بحماس.. وقال بعد حديث قصير معها بالإسبانية:

«سوزان هذه كاترينا، إنها كنز. وهي لا تشرف فقط على الخدم بإرادة من حديد بل تطبخ كطبخ الملائكة. كاترينا إي مينا نويفا، سوزان هولاند».

فابتسمت كاترينا بأدب، وأحنت رأسها وقالت:

«من سعادتي أن أقابلك سنيوريتا. وأتمنى أن تتمتعي بإقامتك في الكاستيلو. لو سمحت بالمجيء معي، فسأريك غرفتك.. سنيور هل لك أن تنتظر كارلو؟ سيأخذ حقائبك الى جناحك».

«قولي لي قبل أن تذهبي كاترينا.. كيف حال جدتي؟».

«بقدر ما يمكن أن تتوقع سنيور.. حصل لها مشاكل أخرى مع قلبها.. وبعض الروماتيزم، ما عدا هذا كل شيء على ما يرام».

وأحست لورنا بالإرتياح.. إذا كانت الخادمة تتحدث عن الكونتيسة بهذه الحرارة فهذا يعني أنها شخصية رائعة.

وسارتا في ممر طويل قبل أن تنحرفا الى آخر. وحاولت لورنا تذكر هذه الحنايا.. وأخيراً توقفت كاترينا أمام باب خشبي أبيض، وفتحته قائلة:

«هذه غرفتك سنيوريتا!».

ودخلت لورنا فوق الرخام البارد لتنزل درجات مغطاة بسجاد ناعم أحمر. ستائر النوافذ في الغرفة مفتوحة.. واندفع ريح ناعم من جهة البحر مليء برائحة الملح والأعشاب البحرية. الأثاث هنا كان من النوع الحديث.. سرير منخفض كالأريكة، طاولة زينة، خزائن تناسب حجم الجدار.. ومقاعد مريحة، الستائر بلون برتقالي، وهو لون يتكرر في أغطية السرير الحريرية.

وقطعت كاترينا الغرفة حتى نهايتها وفتحت باباً فيها:

«هذا الحمام.. أظن أن لديك كل شيء تحتاجينه كارلو سيأتيك بحقائبك، وإذا رغبت في أن نفرغها لك..».

«لن يكون هذا ضرورياً.. شكراً لك. أوه على فكرة.. أين يجب أن أذهب عندما أريد النزول الى تحت؟ أعني هل أعود الى القاعة؟».

«لا سنيوريتا. بدل أن تلتفتي الى القاعة إستديري الى الجهة الأخرى وستصلين الى سلم صغير يقودك الى الغرفة الرئيسية من الكاستيلو. تفهمين أن القصر كبير جداً لتستخدمه عائلة واحدة فقط. معظمها مغبر ومقفل.. وإذا اتبعت تعليماتي.. سيجدك السنيور..».

«شكراً لك».

وانسحبت كاترينا. وأخذت لورنا تستكشف ما حولها.. من نوافذ الغرفة استطاعت رؤية منظر لا يقطعه شيء قبل أن يصل الى الشاطيء.. والساحل الصخري الذي يحتضن مياه المتوسط في الخلجان والكهوف الضيقة.

ووصلت حقائبها، والساعة الآن بعد السادسة بقليل.

حان وقت الحمام وتغيير الثياب إستعداداً للعشاء. خلعت ملابس سفرها، وتفحصت إنعكاس صورتها في المرآة. فشاهدت أمامها فتاة طويلة نحيلة، صدرها مستدير ثابت، خصر ضامر وأوراك بارزة. وساقان طويلان مستديران. تعلم أنها جذابة، ومع ذلك لا تستطيع أن تفهم أن أياً كان يمكن أن يجدها جميلة. المظهر الجميل لا بد أنه عائق، وتذكرت الفونسو دالبو.. وذلك الشاب في المقهى.. فتنهدت ودخلت الحمام. بعد ذلك ارتدت سترة قصيرة كحلية لها ياقة بيضاء كبيرة، تناسبت تماماً مع تنورة قصيرة.. وربطت شعرها على قمة رأسها بربطة يونانية الطراز، وتفحصت منظرها من جديد. هل تبدو «مودرن» جداً.. طائشة، لا تصلح لأن تكون الفتاة التي تتمنى الجدة تزويجها تشارلي؟ حسناً يجب أن تقبل بها كما هي.. فهذه فكرته هو.. وطالما هو راضي.. فهذا هو المهم.

- ٤ -

تركت غرفة النوم، وتبعت الممر عائدة الى الممر الرئيسي، واستدارت الى اليسار، بدل اليمين. كما قالت لها كاترينا.. فتشت عن السلم الصغير.. ما إذا كان ما يحيط بها أم جو المنزل، أم توترها، لم تكن تدري.. كل ما تدريه أنها تحس إحساساً مريعاً أنها سارت في ممر خاطيء.. فهي لم ترى حتى الآن الىٰ أي مكان.. وأحست بذعر أنها قد تلتقي بشبح أو كائن غريب آخر.. وتمنت أن تلتقي بشخص ما.. إنسان.. أي شيء!

توقفت أخيراً.. ونظرت الى خلفها لا يمكن أن تكون مخطئة.. ربما اتخذت الممر الخاطيء منذ البداية.. ربما هي الآن في الجزء المهجور من الكاستيلو.. ماذا قالت عنه كاترين: مغطى بالغبار ومقفل! إنها فكرة مرعبة، لكنها

رفضت أن تستسلم للرعب أو أن تصرخ طلباً للعون.. وتقدمت الى أقرب باب، وأدارت المقبض، ونظرت الى داخل الغرفة.

شاهدت سريراً ضخماً ذو أربعة قوائم مرتفعة، ينيره مصابيح مخيفة في الجدران. السرير كان مغطى بستائر تتسدل من تعليقة مركزية، أدركت أنها تشكل ستارة كاملة عندما تترك دون ربط.. وطاولة زينة ضخمة. وخزانة مشابهة.. لكن عندما تحرك شخص من كرسي عميق، شهقت لورنا، وسمعت سيدة تقول:

«بوانوي سنيوريتا. أنترير.. موتشوبرازي».

فاستدارت لورنا حول الباب وتمتمت:

«أنا.. أخشى أنني لا أعرف الإسبانية سنيورا».

فابتسمت السيدة العجوز:

«آه.. لا بد أنك السنيوريتا هولاند.. خطيبة حفيدي!».

فابتلعت لورنا ريقها، ماذا فعلت:

«آه.. كونتيسا! أنا آسفة للتطفل! أجل.. أنا سوزان هولاند!».

فتقدمت منها العجوز تهز رأسها، ومدت يديها لتمسك بيدي لورنا.

«أنت لست متطفلة يا عزيزتي. وأنا سعيدة لهذه الفرصة للتحدث معك، دون أية مقدمات للتعارف.. أود أن أعرف أولاً.. هل أنت ضائعة؟ أم جئت تبحثين عني؟».

«كنت أبحث عن سلم، يقود الى الجناح المستخدم من القصر وظننت أنني لو نظرت الى داخل الغرفة..».

كم أن هذا مؤسف.. أن تلتقي بالشخص الذي جاءت لتؤثر عليه.. دون وجود تشارلي..

لكن الكونتيسة كونسويلو ديلاغرانادا لم تبدو للورنا

www.elromancia.com

شخصاً مخيفاً. وبالتأكيد لم تكن تلك المتشددة المتزمتة التي صورها تشارلي.. وسألتها الكونتيسة وهي تشير إليها بالجلوس:

«هل كانت رحلتك لطيفة؟».

فجلست لورنا الى طرف مقعد، تنظر بإعجاب الى جناح الكونتيسة، إنه مثال آخر لقدم الكاستيلو من جديد.. ما من مفروشات حديثة لها. فهي من الواضح تحب الأثريات.

وتابعت الجدة:

«أنا تقريباً مستعدة للنزول.. عادة أستريح بعد الظهر. لذا لم أكن موجودة لإستقبالكم. لا بد أنك ظننتنا غير مضيافين».

«أوه.. لا!.. فلقد استقبلتنا إبنة خال تشارلي.. إستاليتا».

«آه.. إستاليتا.. وما رأيك فيها سنيوريتا؟».

«حسناً.. إنها مجرد طفلة».

فابتسمت الكونتيسة.

«أرى من ترددك أنك لاحظت أنها فظة، وغير مرحبة!».

فاحمر وجه لورنا:

«أوه.. لا.. كونتيسة.. أنا لم أرغب في إعطاء هذا الإنطباع».

«لا تخافي سنيوريتا.. أم هل لي أن أناديك سوزان؟».

فهزت لورنا رأسها موافقة، فأكملت السيدة:

«إستاليتا فتاة مسببة للمشاكل يا عزيزتي. والدتها قتلت عندما كانت في الثالثة من عمرها. وأعتقد أن إبني لا يقضي معها الكثير من الوقت كما يجب. إنه يقضي معظم وقته في مدريد، يدفن نفسه في العمل. وليس لديه الوقت لها، وأنا لذلك أحشدها دلالاً. الأمر صعب، لدى الفتاة

مربية، لكنها كانت أقل من عديمة الجدوى، فتخلصنا منها.. وهي الآن تعيش دون رادع وهذه هي النتيجة!».

«هكذا إذن.. لكن اليس من الأفضل إحضار مربية أخرى تعتني بها.. مربية تستطيع التعامل معها؟».

«ما من شك في أن هذا أفضل.. لكن من؟ يا عزيزتي نحن معزولون هنا تماماً والشابات يردن حياة المدن، هذه الأيام. بالنسبة لريكاردو هي من دون أخطاء، وبالفعل عندما يكون هنا تتحسن تصرفاتها كلها».

وتابعت الكونتيسة بعد أن تنهدت:

«أخبريني الآن قليلاً عن نفسك، فهمت أنك تعملين في نفس الشركة التي يعمل فيها تشارلي».

«أجل.. أعمل في قسم الطباعة».

«هل عرفتيه منذ زمن؟».

ووجدت الرد صعباً، فهي لم تسأله هذا السؤال، فضحكت:

«مدة تكفي».

«ومتى تخططان للزواج؟ يا عزيزتي أين هو خاتمك؟».

الخاتم! وأحست لورنا بخديها يحترقان حرجاً. فهما لم يفكرا بهذا كذلك:

«خاتمي.. كان كبيراً على إصبعي.. لذا أرجعناه للتصليح ولم نأتي به معنا».

«ظننتك أضعتيه.. من سوء الحظ أن يضيع خاتم الخطبة».

«لا.. لم أضعه».

«لم تقولي لي متى تنويان الزواج».

فابتلعت ريقها بصعوبة:

«لا.. أنا.. أعتقد.. نحن نوفر المال قدر ما نستطيع.. وأنا متأكدة أنك تعرفين أن كل شيء مرتفع التكاليف هذه الأيام».

فابتسمت الكونتيسة:

www.elromancia.com

«لكن يا عزيزتي . . أنا واثقة أن تشارلي قال لك أنني سأهتم بحل مشاكله المالية قبل أن تغادرا هنا».

فذهلت لورنا.

«ماذا؟ لم يتحدث تشارلي حول هذا!».

ماذا تعني الكونتيسة بأن مشاكله المالية ستحل؟ ألهذا كان تشارلي تواقاً لإيجاد خطيبة؟ كانت تشك أصلاً في نواياه، لكنها لم تظن أن شكوكها ستتحقق خلال ساعات من وصولها.

وتبدل حديثهما عن الرحلة ، وعن أن لورنا أحبت البلاد، وأنها أحبتها. وأنها واثقة من تمتعها بالإقامة.

ودخلت خادمة مسنة تدعى روزيتا أخذت تمشط شعر الكونتيسة ثم ساعدتها على انتقاء الملابس والجواهر التي سترتديها. حتى لعيني لورنا غير الخبيرتين، بدت الحلي في علبتها تساوي ثروة. فأخذت تتململ في مقعدها، فهي ليست متعودة على منظر الثراء.

ثم أعلنت الكونتيسة أنها جاهزة، وتأبطت ذراع لورنا:

«تعالي . . سننزل لنقابل حفيدي معاً».

وحدق تشارلي بذهول لرؤية جدته مع لورنا. ونظر إليها ببعض التساؤل في عمق عينيه. فهزت لورنا له رأسها بخفة فبدت عليه الراحة.

«لقد قابلت خطيبتك الساحرة يا تشارلي. تقابلنا صدفة. . لكنني واثقة أن هذا أكثر متعة لكلينا، من التقديمات الرسمية ألا توافقين على هذا يا سوزان؟».

فهزت لورنا رأسها وابتسامة ترتسم على وجهها. وبدا على تشارلي الإغتباط:

«كنت أعلم أنكما ستتفقان معاً. سوزان تحب مثل هذه الأشياء. . الأماكن القديمة والبنايات التاريخية».

إنه يستخدم ما يعرف عن اهتماماتها الخاصة لمصلحته،

فقالت ببرود متجاهلة التعبير المنزعج الذي بدا عليه:

«تشارلي يحب صرف المال. . والتفرج عليه. وأحياناً باهتمام جشع مثل هذا القصر. . إنه لا يرى فيه سوى قيمته المادية!».

«كي . . كي أمازح سوزان طبعاً. وهي تحب مداعبتي!».

فابتسمت الكونتيسة غير عابئة بهذا الحديث:

«أوه . . أنتم الشبان كم تحبون الهزر فيما بينكم! في أيامي لم تكن الفتاة تجرؤ على الرد على خطيبها. أنتم لا تقدّرون الحرية التي تتمتعون بها يا عزيزتي سوزان».

وجلست الكونتيسة الى رأس المائدة، تشارلي الى يمينها ولورنا الى يسارها. ثم استدعت الخادم. وقالت بعظمة:

«قل للآنسة إستاليتا، أننا ننتظرها».

فانحنى الخادم وقال بأدب، بالإنكليزية:

«سنيوريتا إستاليتا طلبت العشاء الى غرفتها».

- ٥ -

فردت الكونتيسة ببرود غاضب:

«قل للسنيوريتا إستاليتا أننا ننتظرها. قل لها أن تنزل فوراً!».

وما هي إلا دقائق حتى حضرت إستاليتا ترتدي نفس ثياب الظهر.

فقالت لها جدتها بنعومة:

«إجلسي إستاليتا».

وعندما جلست دون كياسة، أشارت الكونتيسة الى الخدم لبدء تقديم الطعام.

بدأت الوجبة بصمت.. ثم، بعد قليل، أخذت الكونتيسة تسأل تشارلي عن أبويه، وعمله.. ولم تستمع لورنا لكلامهما، بل كانت تراقب إستاليتا وانفعالاتها، التي

كانت ملموسة تقريباً. حتى الطعام اللذيذ المذاق لم يغير من تجهم الفتاة.

بإنتهاء الوجبة، انتقلوا الى غرفة جلوس صغيرة لشرب القهوة اللذيذة الرائحة والمذاق. بعد جلوسهم قالت إستاليتا:

«هل ستعذريني الآن.. آفو؟ «جدتي».

فنظرت إليها الكونتيسة ببرود:

«لا.. بالطبع لا إستاليتا.. ستجلسين مع سوزان وتحادثيها بينما أتحدث أنا مع تشارلي».

حاولت لورنا الإحتجاج:

«أوه.. حقاً..».

فقاطعتها الكونتيسة بثبات ميتسمة:

«لا تشعري بقلة الراحة يا عزيزتي.. يجب على إستاليتا أن تعوض عن تصرفاتها الشريرة بعد ظهر اليوم معكما. أتوافقين نيتا؟».

وبدا السخط على إستاليتا، لكنها جلست صاغرة على أريكة منخفضة قرب لورنا وقالت:

«حسن جداً آفو!».

قبلت لورنا سيكارة من تشارلي، ثم قالت للفتاة:

«أخبريني إستاليتا.. هل تحبين الحياة هنا في العزبة؟».

فهزت كتفيها دون اكتراث، ثم لاحظت نظرة جدتها المنحدرة فردت:

«أجل.. أحبها سنيوريتا».

فقالت الكونتيسة:

«إستاليتا.. لا حاجة لك لأن تنادي خطيبة إبن عمتك بالسنيوريتا.. بإمكانك مناداتها سوزان، فهي ستصبح قريباً من العائلة..».

www.elromancia.com

فقالت الفتاة بفظاظة:

«هل تحبين أنت الإقامة هنا؟ لا أعتقد أنك معتادة على الإقامة في القصور».

فتجاهلت لورنا وقاحتها وردت بنعومة:

«لا.. لست معتادة على القصور، كما أشرت. لكن أعتقد أنني سأتعلم..».

فعبست إستاليتا:

«وهل تتوقعين الإقامة هنا طويلاً؟».

هزت لورنا كتفيها:

«ما يكفي لأعلم مراهقة جاهلة متعجرفة بعض الأخلاق ربما أترين.. لقد بدأت أتعلم.. ربما هذه هي أحاديث سكان القصور هذه الأيام؟».

وبدا الذهول على إستاليتا، وحملقت بلورنا، ولاحظت الغمز الساخر في عينيها، ودون إرادة منها لمست بسمة شفتيها، ثم خنقت البسمة وكأنها تخجل من روحها المرحة:

فقالت لورنا:

«والآن.. ربما نستطيع تبادل حديث ذكي من دون هذا العداء الذي لا طائل منه».

فهزت إستاليتا كتفيها:

«عن ماذا؟».

«أخبريني عن الإستحمام هنا.. هل هو جيد؟».

فردت الفتاة على مضض:

«أجل.. تحت الكاستيلو مباشرة هناك مغطس صخري رائع للسباحة عندما يرتفع المد جيداً. والماء ليست باردة أبداً، كما في أميركا».

«وهل تعرفين أميركا؟».

«ذهبت الى هناك مع أبي.. بقي في نيويورك فترة ثم

انتقل الى منطقة ساحلية يقال لها.. لونغ.. لونغ..».

«لونغ بيتش؟».

«أجل.. أنها مكان سياحي رائع. لكن المياه باردة».

«هذا لأنها على المحيط الهادىء وهي لا تشابه مياه المتوسط الدافئة».

فارتجفت إستاليتا:

«لقد اكتشفت هذا على حسابي.. لكن أبي يحب أميركا، لذا أظن أننا يوماً سنعود الى هناك.. إنه يزور نيويورك دائماً بالطبع، كما معظم عواصم أوروبا لأجل عمله».

«هل زرت لوس أنجيلوس وهوليود وبيفرلي هيلز؟».

«أجل.. لقد كنا كسائحين عاديين.. كم كان الأمر رائعاً».

فابتسمت لها لورنا. ثم، وكأنما أحست إستاليتا أنها أصبحت غير متحفظة عادت الى صمتها.. وتخلت لورنا عن محاولة الكلام معها. لكنها علمت أن من الممكن كسر الغلاف الصلب الذي تتقوقع الفتاة داخله. إذا حاول أحد بعناد، مع المعدات المناسبة.

بقية الأمسية مرت بسرور.. واعتذرت إستاليتا فيما بعد، وبعد فشل لورنا بالإنفراد مع تشارلي لحظات، إعتذرت هي كذلك، لتذهب الى غرفتها. وكانت واثقة من شيء واحد، وهو أن تشارلي لم يكن مهتماً جداً بدعوتها لتسلية جدته.. فأعذاره لإيجاد خطيبة له كلها كانت أسباباً مالية.. هذا ما هي واثقة منه، وكرهت أن يستغلها بهذه الطريقة. وبدأت تتمنى لو أنها ما جاءت.

في الصباح التالي أيقظت لورنا خادمة شابة دخلت غرفتها تحمل صينية عليها كوب عصير برتقال طازج، وابريق قهوة صغير.

www.elromancia.com

«بوناس دياس سنيوريتا».

ووضعت الصينية مبتسمة الى جانب السرير فأجابتها لورنا:

«بوناس دياس. كم الساعة؟».

فحركت الفتاة رأسها وهي تفتح يديها دليل عدم الفهم، فتبسمت لورنا وأشارت إليها بالإنصراف.. وفكرت لورنا أن تحصل على كتاب لتعليم الجمل الإسبانية.

العصير كان لذيذاً.. وارتشفت القهوة وهي تتقدم نحو النافذة لتفتحها وتحصل على أجمل منظر شاهدته في حياتها، وهي تنظر الى البحر وأمواجه المتلاطمة فوق الصخور. شاهدت شخصاً يظهر من باب في الجدار الحجري للواجهة الجانبية للقصر. وعرفت أنه إستاليتا فراقبتها وهي تتجه في ممر حول حافة الخندق الحالي الى أن وصلت الى جسر صغير ضيق. كانت تحمل حقيبة من قماش، وشاهدتها لورنا تقطع مرجة العشب الى أحد جوانب القصر ثم تتجه الى الصخور التي تعلو الشاطيء، وتختفي.. ثم تعود للظهور على الرمال، وبدأت تخلع الروب لتظهر بثياب السباحة فتنهدت لورنا، وتمنت لو أنها بحثت مع الفتاة أمر السباحة ليلة أمس، فلا بد أن الصغيرة ضجرة من فعل كل شيء لوحدها.

أخيراً، اتجهت لورنا الى الحمام فاستحمت، ثم ارتدت بنطلون أخضر ضيق، وبلوزة خضراء دون أكمام.. وبدت هادئة وجذابة وجمعت شعرها برباط من مطاط.

ونزلت السلم الذي استخدمته الكونتيسة في الليلة السابقة لتصل الى غرفة الطعام، ولم تجد أحداً هناك، لكن في بضع لحظات وصلت خادمة لتسألها ماذا ترغب للفطار، كانت الخادمة تتكلم انكليزية مكسرة، فقالت لها لورنا أن كل ما تريده هو بعض القهوة والخبز بالزبدة.. في

منتصف تناولها وجبتها، ظهرت إستاليتا، ضفيرتها مبللة غير مرتبة، ترتدي نفس التنورة والبلوزة التي كانت ترتديها في اليوم السابق. لمجرد التفكير بأنها إبنة رجل يمتلك قصراً، أمر صعب في وقت تستمر فيه بارتداء ثياب كأن ليس عندها غيرها.

ولم ترد الفتاة على تحية الصباح التي قالتها لورنا لها. فأحست بالغضب، لكنها سيطرت على مشاعرها وقالت:

«أتمنى لو كنت قلت لي أنك ستذهبين الى السباحة إستاليتا، لكنت ذهبت معك».

«ولماذا تذهبين معي؟».

فتنهدت لورنا.

«حسناً.. ولماذا تظنين؟ لأنني أحب السباحة.. هل هذا يكفيك؟».

فهزت الفتاة كتفيها:

«تشارلي لا يستيقظ قبل الظهيرة عندما يكون هنا، وجدتي نفس الشيء. ربما من الأفضل لو تفعلي مثلها».

فسألتها ببرود:

«لماذا أنت معارضة دائماً إستاليتا؟».

وأجفلت إستاليتا بشكل ظاهر، لكنها أجابت بحدة:

«لست أفهم ما تعنيه».

«بلى.. تفهمينه. تعلمين جيداً ما أعني. أريد أن أعرف، ماذا فعلت أنا لك لأستحق هذه المعاملة منك؟ يا للسماء.. لم نلتق سوى بالأمس!».

«أنت خطيبة تشارلي».

«وإن يكن! أعرف أنك لا تحبين تشارلي، قال لي هذا، لكن ما من سبب يجعلك لا تحبيني.. حقاً».

وضعت إستاليتا الزبدة على التوست، وقضمتها مفكرة.. ثم سألت:

www.elromancia.com

«لماذا جاء الى هنا؟».

فأحست بإرتفاع الحرارة فيها، لكنها تمكنت من ضبط أعصابها. لم تكن تنوي أن تظهر للفتاة أنها أحرجتها. وردت.

«لرؤية جدته».

«لمجرد الأمل! انه لا يأتي الى هنا إلا عندما يريد المال. وإذا كنت تظنين إنه جاء لرؤية «آڤو» فأنت ساذجة أكثر مما كنت أظن!».

فقطبت لورنا:

«لا تكوني وقحة.. حتى ولو كان ما تقولينه حقيقة، واشك في هذا، فأنت أصغر بكثير من أن تقومي بتعليقات حول أمر لا شأن لك به.. أظنك مصابة بالغيرة، وهذا كل شيء. لكن لماذا يجب أن تغاري مني..».

فضحكت إستاليتا، وقالت بطريقة مهينة مترفعة:

«لست أغار منك».

فوقفت لورنا لتشعل سيكارة، وراقبتها إستاليتا ثم قالت برخى نفسي:

«والدي لن يوافق على ارتدائك البنطلون».

فنظرت إليها لورنا نظرة ساخطة ثم قالت هازئة:

«حقاً؟ هل هذا صحيح؟ أنا أرتجف فزعاً!».

وتركت الغرفة، دون أن تدري الى أين.. لكنها لم تستطع البقاء والسماح للسنيوريتا إستاليتا كونسويلو ديلا غرانادا بإثارة غضبها.

وأمضت صباحها على الشاطيء متبعة الطريق الذي شاهدت إستاليتا تمر به. وجدت الدرجات المحفورة في الصخر، الموصلة الى جون صغير كالكهف. ورفعت بنطلونها وركضت فوق الماء على الشاطيء. ثم بحثت عن أصداف بين الصخور كما كانت تفعل وهي طفلة. الشمس

كانت شديدة الحرارة على كتفيها، وعاد إليها الإحساس بالإنتعاش.. عدائية إستاليتا وحدها منعتها من السعادة الكاملة.

عادت الى المنزل قبل وقت الغداء بمدة طويلة، بدخولها الى الفناء شاهدة سيارة فخمة.. زوار؟ فدخلت المنزل عبر الممر الصغير وبرزت الى القاعة. وسمعت أصواتاً من غرفة الجلوس. فتقدمت الى مدخل الغرفة، متسائلة ما إذا كانت تستطيع رؤية تشارلي لوحده الآن. الغرفة كانت حديثة الأثاث بكل ما في الكلمة من معنى. راديو ومسجلة ستيريو وجهاز تلفزيون، إضافة الى مقصف صغير فيه مختلف أنواع المرطبات. ولم تجد هناك سوى غوميز الخادم الذي قدم لهم الطعام بالأمس، كان مشغولاً بتحضير العصير والمشروبات المختلفة وتبريدها. فاستدار نحوها قائلاً:

«سي سنيوريتا».

فابتسمت له وهزت رأسها:

«لا شيء غوميز. كنت أبحث عن السنيور تشارلي».

«كوم ايفتو سنيوريتا.. سي ناو بوركي؟ ماذا تريدين.. تسألين عن من؟».

الصوت كان مفاجئة لها من ورائها، فاستدارت لتواجه رجلاً يقف بالباب. طويل وأسمر مع جرح رفيع على خده الأيسر.

«أنت؟».

فأحنى رأسه لمعرفتها لكن عيناه ضاقتا:

«لماذا أنت هنا في منزلي؟».

«منزلك؟».

«أجل سنيوريتا.. منزلي».

«إذن.. أنت..».

www.elromancia.com

«الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا!».

قال الكلمات بكل عظمة وعجرفة، فهزت لورنا رأسها بنفرزة. هذا الرجل الطويل الأسمر الذي كاد يدهسها في «مالقة» هو خال تشارلي ووالد استاليتا! المتعجرف الذي يرتدي اليوم بذلة رمادية وشعره الطويل السميك مربوط من الخلف، وله نفس التأثير المقلق كما كان له في «مالقة».. وسمعته يقول بصوت بارد:

«أكرر.. لماذا أنت في منزلي؟».

«آه.. إبن أختك تشارلي جاء بي الى هنا».

«صحيح؟ ولماذا؟».

وأحست بقلق لقدميها الحافيتين، وبنطلونها الضيق الملتصق بجسدها، والذي قالت إستاليتا أن والدها لن يوافق عليه، وبذراعيها العاريتين وشعرها المشعث طولها البالغ مئة وسبعون سنتمتراً يجعلها عادة في مستوى طول معظم الرجال ممن تعرفهم لكن بما أن الكونت يبلغ بكل سهولة طولاً يزيد عن المائة وثمانين سنتمتراً، بدا إنه يشرف عليها من فوق وكأنه ملاك الإنتقام.

«تشارلي.. خطيبي».

وتنحنح الخادم العجوز، فالتفت إليه الكونت.

«إيستا بيم غوميز؟ هل انتهيت».

«سي سنيور».

«ونشو أوبريغادو غوميز! شكراً لك».

فانحنى الخادم مبتسماً ثم انسحب، لكن عندما حاولت لورنا اللحاق به قال لها الكونت:

«لحظة من فضلك سنيوريتا».

هذه المرة الثانية التي يوقعها فضولها الى وضع صعب.. فهل قدر لها مواجهة عائلة تشارلي لوحدها؟

«نعم سنيور».

كان في نظرته نوع من الوقاحة، تشابه النظرات التي في عيني إبنته إستاليتا. وأحست بغضبها يتصاعد.. بأي حق يعاملها بمثل هذه اللامبالاة.

وقالت بعد أن تأخر في الكلام:

«سنيور.. هل تسمح أن تقول لي ما تريد وتتركني أذهب؟».

فرد ساخراً:

«صبراً!».

وتقدم الى المقصف حيث حضر غوميز الشراب، ففكرت لورنا أن تتجاهله وتترك الغرفة.. لكن هذا سيكون فظاظة منها. وهي لم تعتمد على مثل هذه التصرفات. صب كوبين من الليمونادة الباردة وزاد قطعتين من الثلج، ثم تقدم نحوها ومد يده إليها بالكأس. ثم تقدم نحو باب غرفة الجلوس وأقفله، وعاد إليها.. ثم ارتشف نصف كوبه وقال لها:

«ألم يعجبك الشراب سنيوريتا؟».

«لا أرغب في شرب شيء في هذه اللحظات سيدي الكونت».

«صحيح؟ ولماذا؟».

«أنا لا أحب الشراب كثيراً».

فابتسم ساخراً:

«إذن أنت فريدة من نوعك وسط رفاق تشارلي».

وتحول نظرها الى جرحه.. من أين أتى يا ترى.. فلاحظ حركتها فرفع يده الى الجرح:

«هل هذا.. يزعجك؟ لقد اعتدت العيش معه حتى أنني نسيت وجوده».

«لا.. إنه لا يزعجني سيدي الكونت».

«إذن.. سنيوريتا، أنت خطيبة تشارلي. هذا أمر مثير

www.elromancia.com

للإهتمام. هل لك إذن أن تخبريني ماذا كنت تفعلين متجولة في شوارع «مالقة» وأنت في حاجة ماسة لمرافقة؟».

فاحمر وجهها:

«تشارلي.. كان.. كان يقوم باستئجار السيارة التي جئنا بها الى هنا».

«هكذا إذن».

وأنهى شرابه، وتقدم الى المقصف ليصب كوباً آخر.. ثم واجهها من جديد.

«لا شك، بما أنك خطيبته، تعرفين الأسباب التي دفعته للمجيء بك الى هنا».

«أية أسباب سنيور؟».

«هيا الآن.. لا أصدق أن تشارلي لم يكشف لك عن دوافعه للمجيء الى هنا».

«سنيور كونت.. حان وقت الغداء، وأرغب في تغيير ملابسي. وبكل تأكيد مثل هذه الأسئلة عليك طرحها على تشارلي لا عليّ أنا».

«بل على العكس.. أظن أن من واجبي توضيح الموقف لك».

«أي موقف؟».

ورفض أن تخاطبه بلقبه، ولو أنه لاحظ ذلك، فلم يعلق. بل رد ببرود:

«الموقف سنيورينا.. أن والدتي إمرأة عجوز، ولها خيالات إمرأة عجوز. في هذه اللحظات تنظر الى تشارلي.. كيف أقول؟ ولدها الأزرق العينين.. لكنني أنا من أسيطر على هذه العزبة وعلى أموال والدتي، ولست أنوي أن أدعها ترمي مالها على غبي كسول كتشارلي ماك كاين!».

واتسعت عينا لورنا.. مهما كان تشارلي قد فعل، فليس من حق هذا الخال أن يتكلم عنه بهذا الإحتقار فسألته بغضب:

«وما شأن كل هذا بي؟».

فضحك بقساوة.

«أوه.. حقاً سنيورينا، بالتأكيد لست مضطراً لأن أقول لك! إذا كانت نيتك بالزواج منه لها أية أسس على ما يتوقعه من جدته. فأنا آسف لأقول لك أن خيبتك ستكون حزينة!».

فنظرت إليه بغضب:

«كيف تجرؤ على هذا الكلام».

«أوه ستجدين أنني أجرؤ على الكثير. وليس أقلها أن أدعو الأسود بالأسود.. وليس بالرمادي الوسخ».

وتقدمت منه لورنا، لم تشعر في عمرها بمثل هذا الغضب وتاقت لأن تلطم هذا الوجه الساخر. وكادت ترفع يدها عندما أمسكت أصابع فولاذية بمعصمها لتمنع العمل قبل أن يبدأ:

«لا أظن هذا».

«بابا..».

الصوت الصغير كان كالدوش البارد غير المتوقع. وتحررت لورنا من قبضته. واستدارت لتنظر الى الوجه الصغير الغاضب للفتاة الواقفة داخل الباب.

«بابا..».

واستمر الحديث بينهما بلغتهما.. وبغضب تركتهما لورنا غير عابئة بما قد يقولاه عنها.. ثم ركضت السلم الى غرفتها.

لم يبق أمامها سوى شيء واحد تفعله، يجب أن تقابل تشارلي لوحده. وأن تقول له أنها راغبة في الرحيل من

www.elromancia.com

هنا.. لن تتحمل بعد أية إهانة من الكونت ولا من إبنته. وبإتخاذ هذا القرار أحست بالراحة. لكنها لم تستطع تفسير السبب في شعورها بالندم لإضطرارها الى توديع العزبة قريباً. ربما لأنها لن تتمتع بتخييب أمل الكونتيسة العجوز التي عاملتها بلطف.

وارتدت تنورة زرقاء مقلمة بالأبيض، هي الأقصر بين مجموعتها، وبلوزة كحلية. على الأقل لن ترضي الكونت بأن يرى أنها خائفة منه.

ووجدت، لراحتها، تشارلي لوحده في غرفة الجلوس يشرب عصير الليمون. كان يدخن سيكارة طويلة.. ولوح لها:

«مرحباً سوزان.. العصير رائع.. أتعلمين هذا؟».

«تشارلي أريد الحديث معك».

فهز كتفيه بعدم اكتراث:

«صحيح؟ هاي.. تعجبني ملابسك. تبدين جميلة حقاً!».

«تشارلي، الأمر جاد. أريد مغادرة هنا اليوم.. في الحال!».

فتغيرت تعبيراته من التراخي الكسول الى القلق المضطرب.

«لماذا؟ ماذا قالت لك إستالينا الآن؟ سأضربها عندما أراها!».

«إنها ليست إستالينا.. فأنا أستطيع التعامل معها.. هل تعرف أن خالك ريكاردو هنا؟».

«ريكاردو؟».

«أجل.. الكونت.. أعطني سيكارة.. صدقني أحتاج إليها. وأنت.. أنت أكبر كذاب أعرفه!».

فبدا القلق عليه:

«ماذا تعنين؟».

«أنت تعرف ما أعنيه وحق الشيطان!.. ليلة أمس قبل العشاء عرفت لماذا أنت متلهف للوصول هنا مع خطيبة».

«ماذا!».

«أجل.. قل الآن أن الأمر لا يتعلق بالمال! إنه السبب ليس كذلك.. أوه لا تزعج نفسك بالإنكار.. أستطيع المعرفة من وجهك إنني على حق.. صدقاً. ماذا تظنني؟».

وبدا عليه الخجل.

«لست أدري سبب غضبك حول هذا. لا فارق لهذا لديك.. فأنت تحصلين على إجازة مجانية، وأسبابي هي من شأني لوحدي».

فبرقت عينا لورنا وصاحت به بغضب:

«أنت خطير جداً يا تشارلي.. لقد نجحت في توريطي في أصعب وأسوأ وضع في حياتي!».

«لماذا؟ ماذا قالت لك جدتي؟».

«أوه.. ليست جدتك.. إنه خالك! يبدو أنه يعتقدني فتاة تجري وراء المال جاءت معك الى هنا لمحاولة إنتزاع بعض المال من أمه! عندما تحدث معي صباحاً هنا.. أحسست بهذا الحجم!».

ووضعت إصبعها الأول على إصبعها الباهم دلالة الحجم الضئيل وتابعت وأكملت:

«ليس لأنني أعتبر رأيه مهماً لي. لكنني لا أنوي تحمل هذا النوع من المعاملة بعد الآن. وأنا راحلة! وأنت حر في أن تفعل مثلي أم لا؟».

«لورنا!».

وأخذت تذرع الغرفة بإضطراب وسخط:

«حسناً! لا بد أنك فقدت عقلك الصغير أصلاً إذا كنت

www.elromancia.com

تظن أن جدتك ستساعدك مالياً بوجود الأخ بالأكبر!».

«لكن لجدتي مال خاص بها.. وما تفعله به من شأنها.. ثم أنك لا تعرفين القصة كاملة. أمي لم تحصل على بنس واحد من مال عائلتها! ولم يرفعوا إصبعاً لمساعدتها! فماذا يهمني إذا كان قد أسيء فهم دوافعي من المجيء هنا؟ فبطريقة ما، أنا أنتقم منهم لما عاملوا أمي به».

«والى متى تظن أنك قد تنجو بما تفعل، وخالك يراقبك في كل حركة وكأنه الصقر؟».

«جدتي لا تحتاج الى إذن منه لما تفعله. ثم أنها لا زالت تلك العجوز التي ترغب في زواجي.. حتى أنت فهمت حقيقة هذا».

«لكن هذه هي النقطة تشارلي.. كل ما تفعله إدعاء! نحن لن نتزوج!».

فحدق بها مفكراً.. ثم قال ببطء:

«قد نفعل هذا على كل الأحوال».

فضاقت عيناها:

«أوه.. لا تشارلي.. ليس أنا!».

«لماذا؟ هل أنا كريه لهذه الدرجة؟».

«لا.. ليس هذا هو السبب.. الأمر فقط أننا غير مناسبان، وأعتقد أننا لا نمتلك الشرارة المناسبة لإشعال عاطفة بعضنا».

فاقترب منها وتمتم بنعومة:

«لقد بدأت تثيرين الشعلة المناسبة بي.. هل قال لك أحد أنك تمتلكين أروع عينين؟ وساقاك..».

«تشارلي.. توقف عن هذا! لا تتصور أن بإمكانك تغيير ما في ذهني بهذه الطريقة!».

«ولماذا لا؟ كل النساء يحبين الغزل».

«لا.. ليس كل النساء».

«ثم أنني لا أعبث.. بل أعني ما أقول.. لورنا..».

فقاطعته:

«توقف عن هذا! ماذا ستفعل؟».

«أفعل؟ سأبقى هنا بالطبع.. وماذا عنك؟».

«أنا.. سأغادر كما قلت لك».

«صحيح..؟ وهل فكرت كيف أن خالي العزيز ريكاردو سينظر الى عملك هذا؟».

«ماذا تعني؟».

«حسناً.. إذا ظن حقاً أنك باحثة عن المال فسيؤمن أنك غادرت هنا لأنه اكتشف أمرك. وربما يتوقع منك أن تفعلي هذا لو ظننت أن لا مال وراء البقاء».

وسحبت نفساً عميقاً من سيكارتها. وأحس تشارلي بتغيير موقفها. فسألها بخبث:

«هل تريدي أن ينجح الخال ريكاردو بما يريد؟ كنت أظن أن أي شخص لديه كمية ضئيلة من الجرأة يفعل أي شيء لينال فرصة الإنتقام منه، وليس الهرب وكأنه القط المضروب!».

وصاحت به:

«ولماذا أهتم البتة بما يظنه بي خالك الذي تعده قديساً؟».

فضحك:

«لست أدري.. لكنك أنت تدرين.. أليس ذلك.. أم أن مشكلته هي إستاليتا؟ فلو غادرت سيكون ضحكها علنياً معاً.. أليس كذلك؟».

«لا أحب خداع جدتك.. وهذا كل شيء».

«حسناً.. كنت تعرفين هذا قبل أن تغادر مالقة».

«أعرف.. أعرف! ما كان يجب أن أجيء معك!».

www.elromancia.com

«أوافق معك الرأي سنيوريتا!».

والتفتت مجفلة لترى الكونت ديلا غرانادا يتقدم بكسل الى الغرفة ترافقه إستاليتا. . فتجاهلتهما لورنا، وتقدمت نحو النافذة. . هل ستسمح لتشارلي أن يغريها لدخول موقف سيكون من المستحيل عليها أن تنسحب منه؟ كل ما تعرفه الآن أن الكونت يثير في داخلها أغرب المشاعر. خاصة نوع من الغضب الخفيف يطوق للرضى. انه بارد ومتحفظ، متعجرف وواثق من نفسه. تمثال لاله إغريقي على قاعدة مرتفعة، على الأقل في نظر إستاليتا. . وكم تتوق لورنا لأن تهز هذه القاعدة قليلاً! قد يكون دافعها الكبرياء الغبي. . لكنها لم تستطع تحمل قلة اكتراثه.

واستدارت بعنف لتواجه الجميع. . وقد قررت أمراً وقالت بنعومة:

«أنا آسفة لأن أخيب أملك سنيور كونت. . لكن بما أنني الآن هنا، أنوي البقاء. . الى أي وقت يقرره تشارلي».

وتقدمت من تشارلي، وسمحت له أن يضع ذراعه بعفوية فوق كتفيها. . وقالت بدلال:

«أليس كذلك، يا حبيبي؟».

نظر إليها تشارلي نصف ضاحك ونصف مرتاح وتمتم:

«إذا أردت هذا حبيبتي».

إستفاقت لورنا في الصباح التالي باكراً مرة أخرى. . نظرت الى ساعتها لترى أنها تجاوزت السادسة والنصف بقليل. . لكنها لا تشعر بالتعب، ورفضت البقاء مستلقية لتفكر باليوم الجميل في الخارج، في وقت يمكن لها أن تكون جزءاً منه.

واتجهت الى الشاطيء، الذي بدا لها مهجوراً. ونزلت السلم المحفور سعيدة بحريتها. . الشمس بدأت لتوها

بتسخين الهواء البارد. فوق الرمال خلعت صندالها وروب الشاطيء، وركضت بلهفة الى الأمواج البيضاء، لكن برودة المياه جعلتها تشهق، ثم عادت الى الشاطيء. سارت فوق الرمال تعصر شعرها غير مدركة لوجود آخر الى أن وقع ظل رجل في طريقها. وقفزت من مكانها مرتجفة، وقالت ببرود:

«هل يجب أن تظهر دائماً دون إنذار؟ وكأنك الجن الشرير الخارج من القمقم!».

فابتسم، ولو بسخرية وقال:

«هل أخفتك سنيوريتا؟».

نظرت إليه لحظات، تسجل في ذهنها كل شيء فيه، من بنطلونه القاتم الذي يلف جسده بإتقان، الى القميص الحرير البني الفاتح، الى شعره الأسود، أكمام قميصه مرفوعة، وعلى ساعده تلمع ساعة ذهبية، حول عنقه سلسلة ذهبية أخرى تتدلى منها ميدالية مستديرة. . وأحست لورنا بمغناطيسية جاذبيته وكأنها كائن حي يحيط به، فارتجفت واستدارت عنه، لتلتقط المنشفة وتبدأ تجفيف نفسها:

«هل تمتعتي بالسباحة؟».

«أجل. . شكراً لك».

فابتسم نصف إبتسامة وتمتم:

«يظهر عليك هذا».

ارتدت على الفور روب الشاطيء، ليس لأنه غطاء كامل، لكن على الأقل يعطيها ثقة بنفسها. . ولم تكن تدري أنها بوقفها هناك بثيابها الداكنة وشعرها الذي ربطته بالمطاط، دون ماكياج يفسد لون بشرتها الأصلي، لم تكن تبدو أكبر سناً من إستاليتا بكثير.

«لماذا جئت الى هنا سنيور؟».

www.elromancia.com

«أيجب إن يكون هناك سبباً».

«أظن هذا سنيور. لا أستطيع التصديق أن رأيك بي قد تغير بين ليلة وضحاها».

فاستقام في وقفته ووضع يداه في جيبي بنطلونه:

«أنت حادة الذهن يا سنيوريتا.. ألا تقبل السيدات الأميركيات بوجود الرجال دون تساؤل؟».

«ليس عندما يكون الرجل هو الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا».

«تذكرين إسمي جيداً سنيوريتا.. هذا مثير للإهتمام. لقد عرفت إسمك، من إستاليتا.. سوزان أليس كذلك؟».

إنه يحاول فقط التأثير بها، ولن يفلح بالأمر. فالتقطت صندالها وبدأت السير مبتعدة عنه.. فأوقفها:

«سنيوريتا!».

فتنهدت منزعجة واستدارت:

«ما بك؟».

«إنني أقيم حفلة عشاء صغيرة الليلة لبضع أصدقاء.. ومن الطبيعي أن تحضراها أنت وتشارلي، لذلك أقترح عليك إظهار عدائية أقل عندما تتحدثين معي. فأنا لا أهتم مطلقاً فيما لو اضطررت للتخلص من تهاجماتك الكلامية أمام أصدقائي.

فنظرت إليه بغضب.. شفتاها مشدودتان، ثم دون كلمة استدارت لتكمل سيرها على الشاطيء.. إنه لا يحتمل! لا يحتمل إطلاقاً!

بحلول وقت العشاء، وقفت تتفحص ما لديها من ثياب ببعض الإنزعاج.. معظم ثيابها عادية.. فهي لم تفكر في أنها ستحضر حفلة عشاء رسمية مع الكونت الإسباني وعائلته. لكن كان لديها فستان أحمر قطني مطرز بياقة مستديرة يتدلى منها عشرات من القطع المعدنية اللماعة

للزينة.. وفكرت أنه قد يكون مناسباً. له ظهر مكشوف، تنورة قصيرة وضيقة تلتصق بالجسد. وتركت شعرها مسترسلاً، وبعد وضع القليل من الزينة على عينيها، وأحمر شفاه لا لون له، تركت الغرفة.

www.elromancia.com

- ٦ -

أول انطباع لها عن غرفة الجلوس إنها مكتظة بالناس، لكن بتعرّفها على الوجوه، لاحظت أن هناك فقط أربعة وجوه غريبة. كذلك كان هناك صبي من عمر إستاليتا، شاحب ونحيل.

إنطباعها الثاني كان الأكثر إضطراباً.. كل النساء يرتدين الأسود أو الأسود والأبيض في درجات مختلفة الألوان. ثوبها الأحمر القصير غريب ومميز.. واحمر وجهها.

وكأنما أحست بحرجها تقدمت الكونتيسة العجوز مبتسمة منها.

«آه.. سوزان.. يا طفلتي العزيزة! بدأنا نتساءل أين أنت».

«أعتذر كونتيسة، لقد تأخرت أكثر مما توقعت. وارجو

أن لا أكون تركتكم تنتظرون كثيراً».

فردت الكونتيسة بلطف:

«لحظات فقط تعالي.. دعيني أعرفك الى الجميع».

تطلعت لورنا باتجاه تشارلي الذي انحنى لها موافقاً.. وعلى الفور إسترعى نظرها جسد الكونت، وفي لمحة بصر عرفت أنه ليس لوحده. إمرأة صغيرة الجسم متجملة بأناقة.. كانت تقف الى جانبه أصابعها تتمسك بعفوية بكم سترته. ونظرها مرفوع إليه، وكأنها ليست واعية لوجود من تبقى من الساهرين، بينما كان هو يطأطأ رأسه ليستمع الى ما تقوله، والتقت عيناه بعيني لورنا لكنه أشاح عنها.

وقدمتها الكونتيسة الى السنيور فيدل الرجل العجوز الذي يصلح صديقاً لها أكثر من إبنها ثم الى زوجين شابين قدمتهما بإسم السنيور والسنيورا برونتيرو، وبدت السنيورا برونتيرو ودودة جداً، وبعد أن قدم خادم للورنا كأس شراب قالت لورنسيا برونتيرو:

«كيف تجدين الإقامة في إسبانيا سنيوريتا؟».

فابتسمت:

«أوه.. عظيمة. شكراً سنيورا.. بلادكم جميلة.. أتعيشون في هذه المنطقة؟».

«أجل.. في بلدة تدعى «قاسيما» الى القسمة على بضعة أميال من هنا. يجب أن تجعلي تشارلي يأتي بك لزيارتنا.. نحن نزرع الأزهار في عزبتنا، وستجدينها مثيرة للإهتمام».

وردت لورنا بأدب:

«شكراً.. لكن لا أظن أننا سنبقى هنا طويلاً».

انضم تشارلي إليهما وقال محتجاً:

«ماذا؟ حبيبتي.. بالطبع سنبقى الى بعض الوقت. لن نستطيع الإسراع في السفر ولقد وصلنا لتونا».

www.elromancia.com

فردت عليه بحدة وبصوت بارد:

«إنك تنسى وظيفتي حبيبي».

فابتسمت الكونتيسة:

«لكن وظيفتك مهمة طالما أنت غير متزوجة.. وأنا واثقة أن تشارلي يفكر في تغيير هذا الوضع في المستقبل القريب. هه تشارلي؟».

فابتسم تشارلي بطريقة سمجة أزعجت لورنا. وأمسك بذراعها قائلاً:

«طبعاً يا جدتي.. بالكاد أستطيع الإنتظار لجعلها زوجتي، إنها فتاة جميلة، كما لا بد لاحظتم جميعاً!».

وانضم الى الجمع رجل يتأبط ذراع إمرأة صغيرة الجسم، ولم تكن لورنا مسرورة أكثر من الآن بوجود الكونت. فنظرت الكونتيسة العجوز الى المرأة.

«يا عزيزتي جوانيتا.. بالطبع لم تلتق بعد بضيفتنا الثانية الشابة سوزان يا عزيزتي هذه السنيورا باستينو، إنها صديقة عظيمة للعائلة».

وأحست لورنا بالراحة لخلاصها من قبضة تشارلي للتقدم لتمسك بيد المرأة للمصافحة.. وهما تتصافحان نظرت لورنا نظرة شاملة الى جوانيتا باستينو لأول مرة، وأحست بأنها تعرفها، فقطبت وقد لاحظت أن المرأة تنظر إليها باستغراب كذلك.. ثم تلاشى كل شيء.

وقالت جوانيتا بأدب:

«كيف حالك؟».

«بخير شكراً لك.. الولد الذي مع إستاليتا أهو إبنك سنيورا؟».

«أجل.. إنه زيندرو».

ونظرت الى الكونت وكأنها ضجرت من المقابلة هذه.

وانضم تشارلي الى لورنا.. وقال ضاحكاً:

«السهرة ثقيلة أليس كذلك؟ لو كنت مكانك لما أكثرت الكلام مع السنيورا.. إنها والكونت ملتصقان.. وأظنها لا تحبني كذلك».

هزت لورنا كتفيها بعدم اكتراث ونظرت إليه ببرود:

«لكنك أنت بنفسك تتسبب بالكثير مما نسمع.. فكيف تجرؤ على التعليق بكل وقاحة حول زواجنا؟».

فنظر حوله مرتبكاً:

«أشش! أنت تعرفين جيداً أنني مضطر للتصرف هكذا!».

فسخرت منه:

«لقد بدأت أظن أنك ستورطني بموقف لا تراجع عنه».

«أوه.. هيا.. لور.. سوزان! أنظري لندع هذا النوع من الجدال الى وقت نكون فيه لوحدنا!».

وأحست بنوع من وقوعها تحت القضاء والقدر.. لكن تشارلي صاح بصوت منخفض غاضب:

«إجمدي..».

وتقدم خاله ليقف الى جانبهما. وتفحص الكونت لورنا متعمداً، للحظات ثم تمتم:

«إذن سنيورينا.. كيف تجري السهرة معك؟».

فنظرت إليه ببرود ولم ترد.. ثم قالت:

«أعطني سيكارة تشارلي».

فأخرج تشارلي علبة سكائره بغضب، بالرغم من عدم اهتمامها بانزعاجه.. ولراحتها، ظهر خادم ليعلن أن العشاء جاهز.

بعد إنتهاء العشاء، عاد الجميع الى الصالون من جديد، حيث أعلنت جوانيتا باستينو أنها ستسليهم.. لورنا الجالسة على أريكة منخفضة قرب لورنسيا برونتيرو، تساءلت في نفسها كيف ستفعل جوانيتا هذا.. خرج ولدها زيندرو من

www.elromancia.com

الغرفة ثم عاد يحمل الغيتار. . وبدا أن ترددها الأولى كان مجرد إدعاء.

عندما بدأت الغناء، تلاشى كل اعتراض لدى لورنا، والمرأة الشابة بصوتها العذب الواضح، تغني بعضاً من أغنيات بلادها الفولكلورية. قابلتها عاصفة من التصفيق والإستحسان عندما انتهت.

نظرت لورنسيا الى لورنا مفكرة:

«ما رأيك بتراثنا سنيوريتا هولاند؟ هل أحببت مثل هذا التعبير عن العاطفة؟».

«أوه. . بلى. . أعتقد أن الموسيقى التراثية لأي بلد هو صورة مصغرة، لما هو أساسي وراسخ في نفسية شعبه».

فقال جورجيو برونتيرو:

«أجل. . أوافق معك. فشعبنا هكذا، مرح في الأساس ومبتهج لكن مع حزن مدفون في حياتهم. فهناك الكثير بحاجة الى تطوير».

فضحكت لورنا:

«آه. . أنت راديكالي. . كنت أظن أن هناك صعوبة في إيجاد هذا النوع بين. . أرستقراطيي هذا البلد».

فصاحت لورنسيا:

«أوه. . لكن لماذا؟ نحن لسنا عمياناً عن البؤس الذي نراه في الشوارع. . لكن مثل هذه الإصلاحات صعبة التحقيق».

فهزت لورنا رأسها:

«صحيح! على كل الأحوال، هنا نجد مضادات متنافرة. . الفاحش الغنى، والمدقع الفقر»

فعلق الكونت، بعد انضمامه إليهم، يقف قرب مقعد لورنا:

«ومن يستطيع القول أي الطبقتين أكثر سعادة؟ أنت من

ذلك النوع الذي لا يستطيع رؤية أن كل الأشياء نسبية تقريباً».

فاحمر وجه لورنا وردت محنية الرأس:

«إنه نوع من الدفاع يلجأ إليه عادة. . أمثالك».

فصاح تشارلي:

«سوزان!».

فضاقت عينا الكونت:

«تمهل يا تشارلي! فخطيبتك تثير اهتمامي كثيراً. تابعي واشرحي ما تقصدين سنيوريتا».

وجدت لورنا نفسها محط إهتمام الجميع. . إستاليتا كانت تنظر إليها متسلية بوقاحة. . فأحست بدفاعاتها تتصلب، وقالت ببرود:

«وماذا بعد ليقال؟ لقد قلت كل شيء في جملة قصيرة. وما أحب أن أعرفه، كيف يمكن لك أن تقول بكل عدم اكتراث أن كل الأشياء في الدنيا نسبية. . فما هو دليلك على هذا؟».

تحرك الكونت متراخياً. . مما ذكّر لورنا بوحش رشيق طريّ شرس من الأدغال. وقال بصوت منخفض:

«سنيوريتا. . لست بحاجة لإثبات ما أقوله لك. لكن هل تنكرين أن حاجات الإنسان، سعادته، خلال حياته، تتغير؟ أنت مثلاً، لم تعودي تتمتعي بلوح من الحلوى، أو رحلة الى حديقة الحيوانات، أو بلعبة دب جديدة. . فاليوم. . فلنقل. . سعادتك أكثر تقدماً. . فأنت تتمتعين بـ. . سيكارة. . لمسة من شفتي الحبيب. لكن، أيمكن أن تقولي، صادقة، أن هذه الملذات تعطيك الإكتفاء أكثر من الملذات الطفولية التي كنت معتادة عليها؟».

فهزت لورنا رأسها بإهتمام:

«تابع من فضلك».

www.elromancia.com

فابتسم الكونت:

«إذن فالحياة نسبية.. المليونير يحصل على سعادته عبر ماله، من يخته، طائرته الخاصة.. والرجل الفقير يتمتع بأشياء أبسط، لكن بنفس الرضى».

فردت لورنا متجاهلة، إشارات تشارلي الخائفة:

«الفقر لا يمكن صرف النظر عنه بهذه السهولة».

«أنا لا أصرف النظر عنه سنيوريتا. ليس هناك فقر في عزبتي. وهذا لا يمنع أن يكون في الحياة الخادم والسيد. فبدون هذا التباين لا شيء يكتمل. والهوة بين الإثنين هي أكبر في أماكن أكثر من الأخرى. لكن المبدأ يعمل بنفس النظام».

«إنه نوع من الديكتاتورية في الواقع».

«أتفضلين أن تواجهي العجز الذي قد يجده المرء عندما يحاول القيام بعمل لا يجيده؟ أم الأفضل تنظيم الخبرات في اختصاصات محددة؟».

«أعتقد أن هذا ينطبق عليه القول أن الشيطان الأفضل هو الذي تعرفه».

وأحست بالسرور لرؤية عيني الكونت تضيقان وهو يرد:

«سنيوريتا..».

لكن جوانيتا باستينو تقدمت من الكونت لتضع يدها في ذراعه، ثم تمتمت بنعومة:

«ريكاردو، كويريدو، أظن أن موقفك واضح.. وإذا لم تتقبله السنيوريتا.. في لو صدها في اعتقاداتها. ألا نستطيع الرقص الآن؟».

فتغيرت تعبيرات وجه الكونت. ولاحظت أن أثر الجرح البارز على وجهه قد استراح كذلك براحة نفسية صاحبه.

بعد قليل غادرت لورنا الصالون لتسير عبر ممر وجدته يوصل الى القاعة الكبيرة في القصر، التي دخلت إليها أول

ما وصلت.. ففتحت الباب لتدخل إليها بسعادة للفرصة المتاحة أمامها لإستكشافها عن كثب.. لاحظت أن الدرع الحديدي فوق المدفئة إنما هو صورة كبيرة عن الدرع الذي شاهدته مرسوماً على السيارة.. تفحصته للحظات قبل أن تستدير الى طاولة من خشب السنديان تماثل الكراسي من حولها. الجلود على الأرض، بعضها لا يزال رأس الحيوان متصل به.. مما يعطي المكان جواً يعود الى القرون الوسطى.. تصورت الطاولة مليئة باللحم والفاكهة، والأواني الفضية تقدم للفتيات والجنود.. تصورها كان حياً خيالياً، فلم تسمع الباب ينفتح ثم ينغلق الى أن سمعت من يقول:

«ماذا حدث سنيوريتا؟ هل اختلاف آراءنا الصغير أفسد رغبتك في صحبة أحد؟».

استدارت لورنا بسرعة.. وقالت بحدة محاولة الظهور بالبرود الذي لم تكن تحس به:

«وهل كنت تلاحقني سنيور؟».

وانضم إليها ببطء ليقف الى جانبها. وسألها بنعومة:

«هل يعجبك قصري سنيوريتا؟».

«طبعاً.. إنه يعجب أياً كان».

«ليس أياً كان، ولا كل إنسان.. فتشارلي لا وقت لديه.. كيف أقول؟ للاشياء الجميلة في الحياة. بالنسبة له، يجب الإستيلاء على الأشياء، إستخدامها، تدميرها.. وليس فقط التفرج عليها والإعجاب بها ببساطة».

«رأيك بتشارلي ضعيف أليس كذلك؟ لماذا؟».

فهز الكونت كتفيه:

«لا أود أن أحطم أوهامك سنيوريتا».

فقالت بحدة:

«لن تفعل هذا، على كل الأحوال. ماذا فعل؟ بحق الله

إنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، صغير جداً لأن يكون له حياة بغيضة في نظرك!».

«سنيوريتا، من الواضح أنك لا تدركين ما تتكلمين عنه.. أقترح عليك إبقاء آراءك لنفسك. فأسبابي، لعدم إعجابي بإبن أختي هي خاصة بي. ولا أرغب في بحثها معك».

فتنهدت وقالت:

«لا بد أن.. شقيقتك أكبر منك سناً».

«والدة تشارلي أكبر مني بعشر سنوات. مع أنني لا أتصور سبب إهتمامك بهذا».

فتنهدت لورنا.. هذا ليس شأنها ولا مشكلتها، ومع ذلك فهي تحشر نفسها.. وبدأت تسير نحو الباب ببطء.. فسألها ساخراً:

«هل أنت ذاهبة سنيوريتا؟ هل يزعجك وجودي؟ أم يقلقك؟».

فاستدارت إليه ساخطة:

«أنت لا تجعلني أضطربْ سنيور!».

«لا؟».

«لا.. إنني فقط لا أستطيع حتى الآن فهم تصرفاتك المتعصبة».

فاسودت عينا الكونت بالغضب، فأحست بإحساس غريب، مزيج من الخوف والإثارة، لإدراكها أنها لا تعرف سوى القليل عن هذا الرجل وتقدم نحوها خطوة، فأحست بالخوف الحقيقي. ودون انتظار رده خرجت من الباب بسرعة. في إسراعها لم تشاهد الفتاة التي كانت تتقدم من الجهة الأخرى، حتى كادت تصطدم بإستاليتا، التي حدقت بها بذهول.. وسألتها بعصبية:

«سنيوريتا.. أهناك شيء خاطيء؟».

هزت لورنا رأسها، وعضت على شفتها:

«لا.. لا.. بالطبع لا شيء خاطيء! أرجو أن تعذريني!».

وراقبتها إستاليتا الى أن غابت عن نظرها. وقناع بارد يغطي وجهها الصغير.

في الصباح التالي أبلغها تشارلي أن الكونت قد عاد الى مدريد مرة أخرى. ومع إحساسها بالإرتياح، إلا أن وجود الكونت كان قد أعطاها نوع من الإثارة لم تفهم كنهه.

وسألته بجرأة:

«متى سنرحل تشارلي؟ لقد مضى علينا أربعة أيام.. وقلت لي أنها ستكون زيارة قصيرة».

كانا على الشاطيء تحت الكاستيلو، الشمس دافئة فوق أكتافها العارية.. وفتح علبة سكائره وقدم واحدة لها مفكر:

«ولمَ العجلة؟ قلت بنفسك أن لا وظيفة لديك تنتظر عودتك. وأظن عليك أن تتمتعي بعدم القيام بشيء سوى الأكل، والنوم، والإستلقاء في الشمس».

ونفخت لورنا دخان سيكارتها.

«لا يجب أن تفكر بي هكذا تشارلي.. فأنا لست مثلك. وهذه هي المشكلة. أنت دائماً تفكر أنك تعرف الأفضل.. لنا معاً».

«ولكنك معجبة بالإقامة هنا!».

«يعجبني الكاستيلو، وبالطبع الطقس. أما الراحة.. الكونتيسة لطيفة، لكنني لا أراها كثيراً. وإستاليتا عدائيتها لي واضحة!».

«وريكاردو؟ إنه مشكلتك الأساسية.. أليس كذلك؟».

«ليس بوجه خاص».

«أوه.. لا تقولي هذا لورنا.. لست أعمى.. أرجوك!».

www.elromancia.com

«وماذا تعني بهذا؟».

فالتوت شفتا تشارلي:

«تعرفين جيداً ما أعنيه لورنا تيرانت! جدالك معه ليلة أمس لم يمر دون ملاحظة! وليس مني فقط، جوانينا لم يعجبها كذلك. فلا أحد، ولا أحد على الإطلاق، يتجادل مع الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا!».

مررت لورنا أصابعها في شعرها.

«وهل هذا صحيح؟ وماذا استنتجتم كلكم مما جرى؟».

«كان واضحاً انجذابك إليه».

«ماذا؟».

«حقاً.. حتى أنني لم أضطر الى التخيل.. قد أكون غليظ الذهن في بعض الأشياء، لكن هذا.. على الأقل فيما يختص بك، أنا متأكد».

«إذن فأنت تترك لقدرتك على الفهم تقودك الى الضلال. عمك لا يهمني مطلقاً. ما عدا بقدر ما يثير فضولي بعدائيته لك. لماذا؟ ماذا لديه ضدك؟ عدا عن رغبتك الواضحة في تحسين وضعك المالي على حساب جدتك».

إستلقى تشارلي الى الوراء ينفخ دخان سيكارته دوائر في الهواء.

«ولماذا يجب أن يكون هناك شيء محدد؟».

«لأنه ليس بالرجل الغبي! فلديه أسباب قوية كي لا يرغب في وجودك هنا.. وأنا أريد معرفتها».

فضحك:

«ربما لديك بعض الأفكار.. على كل الأحوال، خالي ريكاردو كل شيء يجري لصالحه. أليس كذلك؟ الجاذبية، إذا استطعت تجاهل آثار الجرح في وجهه.. منزل جميل.. دخل من منطقة تعود للعائلة منذ مئات السنين

وتقدر بمئتي ألف دولار سنوياً!».

فنظرت إليه بازدراء.

«أوه.. تشارلي، كم أكره أن يكون لي تفكيرك! هل تصدق أنني غبية لدرجة الإهتمام برجل لمجرد ماله؟».

«ولمَ لا..؟ الاف النساء هكذا!».

«ولكنني أنا، أنا! ولا يمكن أن أكون ممن يتزوجنَّ رجلاً أكبر منهن بسنوات وسنوات على أمل وراثته بعد سنوات!».

فجلس تشارلي:

«لا يمكنك وضع ريكاردو في هذا التطبيق.. ثم أنا متأكد أنك ستحبين أن.. يتمسك بك!».

وطارت يدها الى وجهه.. ثم أحسا بوجود شخص آخر معهما وهو يصيح:

«أيتها العاهرة!».

www.elromancia.com

- ٧ -

ووقفت إستاليتا معهما . . وفي وجهها الوقاحة تسأل ساخرة:

«ما الأمر . . ؟ خلاف في البيت السعيد باكراً؟».

فصاح بها تشارلي يفرك خده:

«أغربي عن وجهي إستاليتا».

فوقفت لورنا.

«لا . . لا تذهبي . هل ستسبحي إستاليتا؟».

«قد أسبح . . لماذا؟».

«هل أستطيع الإنضمام إليك؟».

«أعتقد هذا . . أنا ذاهبة الى البركة بين الصخور».

فوقف تشارلي صائحاً بخشونة:

«سوزان!».

فرفعت لورنا أنفها بازدراء له، ثم استدارت مبتعدة مع إستاليتا. ووصلتا الى بركة طبيعية عرضها لا يقل عن ستة

أمتار تشكل بركة سباحة رائعة. ودون انتظار إستاليتا غطست لورنا في عمقها البارد. ثم عادت الى السطح تنفض الماء عن شعرها. . سألت إستاليتا بأنفاس مقطوعة:

«ألن تنزلي؟».

«أنت تسبحين جيداً . . كوني حذرة سنيوريتا فالبركة عميقة جداً!».

«لست خائفة إستاليتا . . آسفة لخيبة أملك».

«لماذا جئت معي سنيوريتا؟ عما كنتما تتجادلان؟».

«هذا من شأننا».

عائلة كونسويلو ديلا غرانادا . . لا تحتمل! أيظنون أن لهم حق ملوكي بطرح أسئلة خاصة؟

وأدلت إستاليتا بقدميها في الماء، وقالت بوقاحة وبرود:

«أنت كاذبة . . ولن تستطيعي خداعي . . أنت تتورطين مع أبي . . أليس كذلك؟».

فرفعت لورنا رأسها الى السماء:

«يا إلهي! هل يدور في ذهنكم جميعاً نفس الموضوع؟».

«إذن . . هذا ما كنتما تتجادلان به!».

«لم أقل هذا».

«لا . . بل قلت ما يكفي سنيوريتا. ما الأمر؟ ألا يكفيك رجل واحد؟».

«إستاليتا . . يوم ما ستتحدينني كثيراً. أنت في الثالثة عشرة. ولأجل الله توقفي عن التصرف كفتاة مفسودة!».

«لكن يجب أن تعرفي أنك تتعمدين إزعاج أبي . . فهو سافر اليوم الى مدريد بينما لم يكن ينوي هذا قبل عدة أيام. فلماذا يفعل شيئاً كهذا؟».

«لست أدري . . فأنا لست حارسة له».

«إذن كما ظننت: حدث شيء ما بينكما ليلة أمس».

www.elromancia.com

«أوه.. لا تكوني حمقاء هكذا! إستاليتا.. أرجوك ألا يمكن أن نتصادق.. ليس هناك فجوة كبيرة بيننا.. ويمكن أن نمرح كثيراً معاً».

مطت شفتيها وهي ترد بسخط:

«إذهبي من هنا سنيوريتا.. لست أرغب في صداقتك. فأنا أكرهك!».

«لا تكوني سخيفة!».

«لست سخيفة، بل أنت السخيفة سنيوريتا.. لتصورك أن أبي قد يشغل باله بشخص تافه مثلك!».

أمسكت لورنا بكاحل الفتاة لتجرها الى الماء وتنهي هذا الجدال العقيم.. لكن إستاليتا كانت أقوى مما تصورت.. فبقيت ثابتة، وركلتها بقدميها لترميها الى الوراء.. فشهقت دهشة ثم أحست بأن شيئاً يعمي بصرها، وسمعت طنين الماء في أذنيها.. ثم لم تعد تعي أي شيء آخر.

كانت تستلقي فوق شيء طري. جسدها فيه ضعف وعجز لكن رأسها يؤلمها بشكل مريع. وكأنها تضعه فوق وسادة من مسامير تضغط عليه.. وعندما حاولت التحرك أصبح الألم لا يطاق، فأطلقت صرخة مخنوقة، سمعتها كوقع الرعد في أذنيها.

عندما تمكنت فيما بعد فتح عينيها، وعادت الأشياء كأنما تسبح في الهواء لتقف أمامها، ميزت صورة ممرضة ببذلتها الرسمية تجلس قرب سريرها، والتي لاحظت صحوها، وتقدمت لتنظر إليها بعينين قلقتين.

«سنيوريتا.. كيف تشعرين؟».

«ماء.. هل لي.. بجرعة ماء؟».

«طبعاً.. لحظة سنيوريتا».

أحست بالماء بارداً منعشاً، ثم ارتاحت على الوسادة:

«أين.. أين أنا؟».

«في القصر سنيوريتا.. طبعاً تتذكرين.. كنت تسبحين.. فهزت لورنا رأسها ببطء:

«أخبريني أرجوك.. ماذا حدث؟».

ومسحت الممرضة جبينها بمنشفة باردة. وقالت مبتسمة:

«فيما بعد سنيوريتا.. فيما بعد. إرتاحي الآن، وسأطلب من الطبيب أن يأتي ليراك».

وأغمضت لورنا عينيها.. عندما فتحتها ثانية، لاحظت أن الممرضة لا زالت هنا.. لكن ملامحها تغيرت.. آه.. إنها ممرضة أخرى.. الغرفة مألوفة لها.. إنها غرفتها.. إنها في الكاستيلو.. مع تشارلي.. تشارلي ماك كاين.. أجل.. تشارلي ماك كاين.

تقدمت الممرضة منها:

«إذن لقد استيقظت ثانية سنيوريتا هولاند».

هولاند؟ هولاند؟ ورفض عقلها الإسم. إسمها ليس هولاند.. بل تراي.. لا.. توري.. أم هو تيرانت. أجل هذا هو الصح تيرانت. وفتحت فمها لتوضح هويتها.. فتذكرت تلك اللحظة الخداع الذي أقنعها تشارلي أن تشارك فيه. فهنا يعتقدون أن إسمها هولاند.. سوزان هولاند.. شكراً لله أنها تذكرت في الوقت المناسب.

«منذ متى وأنا هنا؟».

«ليس من مدة طويلة.. هل تذكرين ما حدث؟».

حاولت لورنا جهدها. وأصبح كل شيء واضح، فردت ببطء:

«أجل.. أعتقد هذا.. كنت.. أسبح.. وكانت إستاليتا معي..».

«صحيح.. وقعت، وصدمت رأسك بالصخور.. إستاليتا أنقذت حياتك. وإلا لغرقت!».

www.elromancia.com

«صحيح..؟ أجل.. صحيح.. أذكر الآن..».

وتذكرت جيداً.. أنها لم تنزلق، ولم تقع.. لقد دفعتها إستاليتا بقدمها.. ولا بد أنها صدمت رأسها على الصخور. وتذكرت الطنين في أذنيها، وارتجفت.. فسألتها الممرضة بسرعة:

«أتحسين بالبرد؟».

«لا.. لا!».

وابتسمت بشحوب، فربتت الممرضة على كتفها.

«إنتظري لحظات سنيوريتا.. حاولي أن لا تنامي لأحضر لك الدكتور رودريغز».

وتقدم الطبيب الى سريرها مبتسماً، وطرح أسئلة عدة على الممرضة بلغتهما، ثم وضع الطبيب ميزان حرارة تحت لسان لورنا، وأخذ يفحص نبضها. ثم قال:

«جيد.. جيد! أنا مسرور لأنك تحسنت سنيوريتا هولاند. لقد سببت لنا صدمة، لكنني مسرور لأنك تحسنت بسرعة مرضية».

مررت لورنا لسانها على شفتيها الجافتين وقالت:

«شكراً لك».

انحنت الممرضة عليها مبتسمة:

«أترغبين في شيء تأكلينه؟ بعض الحساء مثلاً؟».

«أرجوك.. فأنا أشعر بالفراغ.. منذ متى وأنا هنا؟».

فقطب الطبيب:

«منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة سنيوريتا.. أجرينا لك تقطيب لمؤخرة رأسك.. لهذا رأسك يؤلمك. والآن ستأتيك الممرضة ببعض الحساء. بونا نوبا سنيوريتا».

بعد خروج الطبيب، الممرضة، حاولت لورنا أن ترفع نفسها عن الوسادة، فاجتاحتها موجة دوار وتعرّق بارد يصحبه إحساس بالغثيان.. فعادت لتغرق نفسها فوق

الوسادة بضعف.. وانفتح الباب ليدخل الكونت ديلا غرانادا.

حدقت به لورنا بذهول، وقالت غير مصدقة:

«لكن.. لكنك في مدريد..!».

فأغلق الكونت الباب وراءه.. وقال بنعومة:

«كنت في مدريد».

«ماذا تريد الآن سنيور؟».

«أليس من الجائز أن أقلق على صحتك؟».

«بصراحة.. لا! الممرضة ستعود بعد قليل ومعها الحساء».

«أعرف.. كيف تشعرين الآن؟».

فحركت رأسها من جانب الى آخر. قالت وهي ترتجف:

«بخير.. كما أعتقد. أرجو أن تبتعد من هنا، أنت تثير توتري».

«لماذا؟ لماذا أفعل بك هذا سنيوريتا؟ إلا.. إذا كان لديك شيء تخفينه عني».

فحدقت به برعب:

«أنا.. أنا.. ليس لدي شيء أخفيه سنيور».

«لا شيء..؟ أنت لست كاذبة مقنعة سنيوريتا تيرانت».

أحست لورنا بالألم في رأسها يتعاظم، فتأوهت، وأغمضت عينيها، وهي تفعل فتح الباب من جديد ودخلت الممرضة، التي بدا عليها الحرج.

«أوه.. ديسكالوب سنيور كونت. لم أكن أعرف..».

«إستابيني سنيوريتا غونزاليس.. أنا خارج. سأراك فيما بعد سنيوريتا».

بعد خروجه قالت لها الممرضة:

«سيدي الكونت، كان قلقاً عليك؟».

www.elromancia.com

تنهدت لورنا.

«ربما»..

مجهود شرب الحساء أرهقها. وبالرغم من عذاب تفكيرها غطت في النوم من جديد.

استفاقت ونور الصباح ساطع، والستائر مفتوحة، وهواء البحر يمر بنعومة وبرود على جبهتها. بعد قليل فتح الباب، وأطل رأس إستاليتا. فلاحظت لورنا خطوط التوتر حول عينيها. وبدت شاحبة، قلقة.. بالطبع لا يمكن أن تكون حالتها هي التي أقلقت الفتاة، ولا حتى دورها الرئيسي فيما أصابها. قاومت لورنا بقوة لكي ترفع نفسها فوق الوسادة:

«أدخلي إستاليتا».

فترددت الفتاة لحظات. ثم تقدمت ببطء، والتعبير المتجهم الفكر كالعادة يطغى على وجهها. ولم تقل شيئاً.. فابتلعت لورنا ريقها بصعوبة وقالت:

«أنا آسفة لتسببي بكل هذه المشاكل لك، إستاليتا».

فردت الفتاة ببرودة تهز كتفيها دون اكتراث:

«لم تتسببي لي بأية مشاكل».

«حسناً.. على الأقل عليّ أن أشكرك لإنقاذك حياتي».

«أجل.. فعلت هذا. فلم يكن لدي الرغبة أن أتحمل حياتك عبئاً على ضميري!».

فشهقت لورنا:

«حقاً.. إستاليتا.. ليس لوقاحتك حدود! لماذا دخلت الى هنا؟ ألمحاولة إزعاجي فقط؟».

وبدا على الفتاة التفكير والتحفظ، وعلمت لورنا أنها إنما دخلت لتتأكد من تقدم صحتها. فعلى الرغم من إنكارها الإهتمام بما إذا كانت حية أو ميتة، إنها لا زالت صغيرة، ولا تعني كل شيء تقوله. وسألتها إستاليتا فجأة:

«لماذا جاء والدي لرؤيتك؟».

«أعتقد أنه جاء ليرى كيف حالي؟».

«ولماذا يهتم بك؟».

«أوه.. يا إلهي!.. لا أظنه يهتم. لكنني ضيفة في بيته وأظنه، كما أنت، لا يريدني عبئاً على ضميره!».

«لكن لماذا عاد من مدريد؟ كان بإمكانه الإتصال.. فالدكتور استدعي على الفور، وهو من أخبر والدي بالحادثة».

لم تكن لورنا قادرة على أن تقول لها أنه عاد ليواجه محتالة في منزله، دون الكشف عن التفاصيل. فالأمر عائد الى تشارلي كي يشرحه. مع أنها كانت سعيدة لقرب حل المشكلة.

قالت الفتاة فجأة، بعد تفحصها العطور والكريمات فوق طاولة الزينة:

«زيندرو يقول أنك رائعة.. متى ستغادرين المكان أنت وتشارلي؟».

«أتمنى لو أستطيع أن أقول لك».

«لماذا؟ ولا تدعي أنك راغبة في الرحيل!».

«أوه.. ولكن هذه هي الحقيقة.. لكنني الآن لست واثقة.. بوجود هذا الجرح. لكن أعدك، سنغادر القصر في أسرع وقت ممكن».

فكتفت إستاليتا يديها وحدقت بالفتاة المستلقية فوق السرير:

«جيد.. سأكون سعيدة عندما يستعيد الكاستيلو هدوئه من جديد».

«إذن ربما تحصلين على مربية».

فعولّت إستاليتا صارخة:

«لست بحاجة الى مربية سنيوريتا».

وسمعتا تشارلي يقول بصوت بارد ساخر من ورائهما:

www.elromancia.com

«هذا ليس من رأي جدتنا كوارثيا».

فاستدارت إستاليتا بسرعة وقالت بغضب:

«أنت لا تعرف شيئاً. لماذا تصر على البقاء هنا تتدخل في شؤوننا؟ أنت تعلم أن والدي لا يحبك!».

«صحيح.. أوافق معك. والدك لا يحبني.. لكن لا سلطة لوالدك كي يمنع حفيداً من زيارة جدته، مهما كانت دوافعه كي يبعدني عن هنا».

فسألت لورنا متعبة:

«ما هي هذه الأسباب؟».

فقالت إستاليتا ساخرة:

«أتحبين أن تعرفي؟ ألم يقل لك تشارلي عن الأسباب؟».

فتمتم تشارلي من بين أسنانه محذراً:

«إستاليتا!».

«أوه لا تقلق.. لن أقول لها.. دعها تكتشف أي نوع من الرجال ستتزوج!».

«إستاليتا!».

أصبح تشارلي أبيض اللون من الغضب.. فتساءلت لورنا عن معنى كل هذا.. على كل، قررت إستاليتا أن هذا يكفي، فاستدارت لتخرج من الغرفة. وعلى الفور استراح تشارلي، ومدت لورنا يدها نحوه محذرة:

«خالك يعرف أن إسمي ليس سوزان هولاند!».

فشهق تشارلي:

«ماذا؟».

«سمعتني.. خالك يعرف إسمي الحقيقي!».

«لكن كيف؟ هل قلت له..؟».

«بالطبع لا! ولماذا أخبره الحقيقة؟ على كل طالما عرف الحقيقة، فالأفضل أن نغادر هنا في أسرع وقت أكون قادرة

فيه على القيام بالرحلة!».

«أراهن أنه كان يتجسس ويستقصي عنك، حتى ولو كنت سوزان لحاول أن يجد عنك شيئاً يقوله لجدتي. على كل لديه أسبابه لعدم رغبته في وجودي هنا!».

«أوه إذهب عني تشارلي، لطالما ندمت على قبولي بمسرحيتك هذه».

فسار نحو الباب:

«تذكري لورنا وأنت تدينيني، أنك وافقت على المجيء ولم أربطك أو أخطفك!».

«أغرب عن وجهي تشارلي.. إبتعد عني.. فقط!».

بعد يومين من هذا. خرجت لورنا من سريرها لتتجول في غرفتها.. كانت تسترد عافيتها بسرعة. فهواء البحر والراحة يفعلان العجائب.

وخلال اليومين كانت الكونتيسة زائرة نظامية. تمضي معظم وقتها معها، خاصة بعد الظهر ووائل المساء. من الواضح أنها لم تعرف بعد ما اكتشفه إبنها. وكانت تعامل ورنا بلطف زائد حتى أن الفتاة أحست بالألم والخجل من الخدعة التي تقوم بها.

بعد أربعة أيام من الحادثة، وهي جالسة قرب النافذة بعد الظهر لا ترتدي سوى روب كحلي، وشعرها الذهبي مسترسل فوق كتفيها.. وصل الكونت.

استدارت لتنظر إليه.. وارتجفت عندما تقدم ليقف أمامها.

«حسناً سنيوريتا.. تبدين أفضل بكثير».

«أوه.. أجل.. أجل سنيور.. أنا.. أفضل بكثير!».

«جيد.. جيد.. أنا مسرور».

«وهل أنت مسرور حقاً؟».

فابتسم بشحوب وسخرية:

«أوه.. بلى يا سنيوريتا.. تأكدي من هذا».

تقدم نحو النافذة، واستدار إليها، مكتفاً ذراعيه، يتفرس فيها. فرفعت نظرها إليه، ثم قالت وكأنها تتحداه:

«لا تنظر إلي هكذا!».

«ألا تحبين أن أنظر إليك سنيوريتا؟».

«لا.. ليس بهذه الطريقة!».

«أية طريقة؟».

فاحترقت وجنتاها:

«تعرف ما أعني.. سنيور. أرجوك قل ما جئت لتقوله، واذهب!».

«لكنني أتمتع بالنظر إليك سنيوريتا. فعلى كل الأحوال إرتباكك هو تأكيد لي على ذنبك. مسكينة سنيوريتا تيرانت.. لم تعتقدي أنني سأكتشف حقيقتك. وبسرعة.

فارتجفت:

«أنت وقح سنيور! ولن تجرؤ على الحديث معي هكذا لو كانت أمك هنا.. أو حتى تشارلي!».

«لا.. لكنهما ليسا هنا. وأنا حر لأقول ما أريد لإمرأة.. مثلك!».

فوقفت لورنا ترتجف:

«ماذا تعني! إمرأة مثلي؟».

«رأيي ببنات جنسك لم يكن طيباً منذ سنوات بعيدة سنيوريتا. وتمثيليتك مع إبن أختي زادت رأيي سوءاً. لا، سنيوريتا النساء اللواتي يستأهلن ثقة الرجل.. قليلات».

لاحظت لورنا أن أثر الجرح قد نفر وتصلب، وتساءلت مرة أخرى كيف حدث له.. وترنحت.. لكنها قالت:

«سنيور، رأيك بي لا يهمني!».

«أنت مخطئة سنيوريتا.. بل مهم جداً بطريقة ما. أخلاق المرأة دائماً مهمة!».

«يا إلهي! وماذا يفترض أنني فعلت؟ مجرد إدعائي بأنني خطيبة تشارلي.. هل هذه جريمة؟ أنا لم أغويه أو أي شيء من هذا!».

أمسكها بغضب من كتفيها، وهزها بعنف.

«سأقول لك جريمتك سنيوريتا.. لقد حاولت إغواء زوج صديقة لي.. ألفونسو دالبو!».

وتركها لتقع وتتمسك بالكرسي، وشهقت:

«أنت.. أنت مجنون.. أنا لم أفعل هذا! صديقتك تؤمن بما يناسبها! وهذه الحقيقة!».

«أتقولين أن ألفونسو فرض عليك الإهتمام بالقوة..؟ إنه تجاهل زوجته كريستينا.. ليغازلك أنت مربية أطفاله؟».

«أجل هذا ما فعله بالضبط!».

فهز رأسه:

«أوه سنيوريتا، أتظنيني أبله؟ هل أبدو بهذه السذاجة؟ لا! لا سنيوريتا.. لست أحمقاً. ألفونسو رجل ثري.. وإمرأة مثلك لن تعترض على غزل رجل ثري، لو وجدها جذابة!».

وروعت لورنا:

«كيف تجرؤ!».

«ستجدين سنيوريتا، أنني أجرؤ على الكثير من الأشياء!».

ولف أصابعه القوية حول معصمها الرقيق وجرّها دون رحمة إليه. فقاومته بيأس، محاولة تخليص نفسها، لكنها أصبحت ملاصقة مع جسده القوي، وهذه الحركة فعلت الكثير في قدرتها. تسارع نفسها وأصبح صعباً، أحست بنعومة قماش بذلته الفخمة، وشمّت العطر الخفيف، وأحست بحرارة جسده.. يده آلمتها وهو يقتل ذراعها ليضعه خلفها بقساوة.. لكن فمه هو الذي سبب لها

www.elromancia.com

الإضطراب الأكبر. فقد كان يبعد بضع سنتمترات عن فمها، يبتسم بسخرية. وعيناه مليئتان بالإحتقار ثم تمتم:

«إذن.. سنيوريتا.. ما قولك الآن؟».

في اللحظة التالية أخذ ضوء غريب يتراقص في عينيه، وقبضته عليها جذبتها أقرب الى جسده. حدق بها للحظات تخطف الأنفاس، ثم هز رأسه ببطء.. وبتنهيدة مخنوقة إنقض بفمه عليها.

كان عناق لم تختبر لورنا مثله من قبل. كانت تظن نفسها فوق كل شيء.. لكنها أدركت على الفور كم كانت مخطئة.. في لمساته خبرة، أيقظت كل ادراكها بجسدها وحاجاته. أحست بأن مقاومتها تذوب. بدلاً من المقاومة، أرادت أن تلف ذراعيها حول عنقه، وأن تدعه يفعل ما يشاء. فقد اختفى المتعجرف الواثق من نفسه، الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا، وأصبح في مكانه رجل.. له رغبات الرجل، وقابلية الرجل الجائع للإكتفاء.

عندما نست لورنا كل شيء، كل ما يحيط بها، عدائيتها نحوه، والأكثر أهمية إحتقاره لها. أبعدها عنه بوحشية. إبتسامة خالية من الرحمة تلوي فمه.

ترنحت لورنا على قدميها، وأمسكت الكرسي لتدعم نفسها.. بينما تابع تحديقه فيها وهو يقول:

«إذن سنيوريتا. الأمر كما ظننته تماماً. أنت لم تجدي معانقتي لك كريهة».

دفنت وجهها بيديها وتمتمت بصوت متهدج:

«إبتعد عني! إذهب من هنا!».

«سأذهب متى كنت مستعداً. ولن تتمكني بعد الآن من إنكار أنني أثبت وجهة نظري..».

«أية وجهة نظر؟».

«أنك ضعيفة ولا تكتفين بعلاقة مع رجل واحد! ومع

هذا، لا أستطيع الإنكار أنك.. كيف أقول؟.. إمرأة جميلة.. وربما لم يحتج ألفونسو الى كثير من التشجيع..».

«أنا لم أشجعه! ولأجل السماء سنيور.. دعني وشأني! لم أكن أود المجيء الى هنا أصلاً. وسأغادر قصرك في أسرع وقت ممكن! ولا تظن مطلقاً أنني بسبب إضطراري لقبول ضيافتك يكون لك الحق بمعاملتي كما تشاء! ومهما كان رأيك بي، فأنا لن أخضع لك!».

فضحك متسلياً:

«سنيوريتا.. أنت مميزة! أتتوقعي مني تصديق قصتك وقد سمعت من ألفونسو بنفسه أنك كنت تقنعينه بدخول غرفتك..».

فصاحت برعب:

«ماذا؟».

«سي..! ولا تزعجي نفسك بالنكران.. ألم أشهد بنفسي ما حصل لك في مالقة؟ أكان ذلك حالة أخرى من التشجيع المخطيء؟ يا لهذا السجل الحافل سنيوريتا! ولم تكتف، بذلك بل جئت الى هنا مدعية أنك خطيبة إبن أختي. ولسوء حظك سنيوريتا عائلة باستينو أصدقاء مقربون لعائلة دالبوا. وهكذا انتهت تمثيليتك الهزلية».

فغرقت فوق الكرسي. ثم نظرت إليه تهز رأسها:

«حسن جداً.. حسن جداً! لم أعد أرغب في سماع المزيد. لقد قلت أنني سأذهب حال أن أستطيع.. لكن بما أن تشارلي لم يحضر لرؤيتي منذ أيام، فنحن لم نتفق على موعد نهائي بعد».

سار الكونت بكسل نحو الباب وقال ببرود:

«لقد عاد تشارلي من حيث أتى.. لقد سافر منذ ثلاثة أيام.. أما أنت فباقية هنا!».

www.elromancia.com

«ماذا؟ ماذا تعني؟ لن أبقى هنا. مهما كان يدور في ذهنك من خطط شنيعة!».

وأحست برأسها يضج بالألم، ولم تستطع استيعاب هذا التغيير في الأحداث. وسمعته يرد ببرود:

«أوه.. لكنك ستبقين. وسأشرح لك التفاصيل فيما بعد..».

«لكنني لا أريد البقاء هنا!».

«ربما لا في هذه اللحظات.. ولكنك ستبقين».

«لكن.. لكن.. إذا كان تشارلي سافر.. فكيف يمكنني أن أبقى هنا..؟ ماذا.. ماذا ستقول إستاليتا؟ أو والدتك؟».

فابتسم الكونت بهدوء وقال متراخياً:

«أوه.. ألم أقل لك؟ ستكونين مربية إستاليتا الجديدة!».

خلال أسبوع، عادت لورنا الى طبيعتها ثانية. أحست بأنها أقوى، تستطيع مغادرة غرفتها دون شعور بالتعب. ما عدا في الأمسيات، كذلك فقد ذهبت الى الشاطيء لوحدها، وسبحت في المياه الدافئة الصافية.

بقيت طوال الوقت لوحدها، ما عدا وقت الوجبات، التي كانت تشاركها مع إستاليتا والكونتيسة. الكونت عاد الى مدريد، وتابعت الكونتيسة مناداتها بسوزان، فأدركت أن بقية العائلة لم تعرف بعد الحقيقة.

وجدتها إستاليتا ذات صباح على الشاطيء، فجلست الى قربها، لتحدثها للمرة الأولى بعد حديثهما في غرفة النوم. قالت مفكرة تتفحص صدفة باهتمام:

«لقد اتصل والدي هذا الصباح».

«أوه.. صحيح؟».

أحست بالقلق، فهي لم تستعد رشدها بعد من الطريقة

التي عاملتها بها هذه العائلة.

«أجل.. وسأل ما إذا كنت لا زلت هنا».

«وهل ظنني سأذهب؟».

وبدا الهدوء على إستاليتا:

«لا.. فقد قال لي أنك ستبقين الى أجل غير محدد».

فجلست لورنا لتنظر الى الفتاة:

«هل قال لك لماذا؟».

«قال إنك ستكوني مربيتي. وقال أن إسمك ليس سوزان هولاند بل لورنا تيرانت.. هل هذا صحيح؟».

«يدعونني لور».

فتنهدت إستاليتا.

«أنت إذن لست خطيبة تشارلي».

«لا».

«هل والدي..».

واحمر وجهها فرفعت ركبتيها لتضع ذقنها عليهما:

«هل والدي.. هل هو.. حسناً! هل أنت عشيقته؟».

فاتسعت عينا لورنا ثم قطبتا:

«لا..! لكنك تقولين هذا بهدوء.. وكنت أفكر دائماً أنك.. تغارين عليه..! فهل تهتمين لو أن الأمر صحيح؟».

«لقد قال لي أبي أن لا أسألك أبداً أي شيء عن أمور شخصية.. لذا من الطبيعي أن أفكر.. أوه.. لست أدري بماذا أفكر».

«أظنك حقاً تهتمين بشؤون والدك. ظننتك في البداية فظة وغيورة! لكن الأمر ليس هكذا.. صحيح؟».

فنظرت إليها إستاليتا بحزن:

«كل ما أريده أن يكون أبي سعيداً! ولن أحب أحداً ممن له علاقة بتشارلي!».

«لكن لماذا؟ لماذا إستاليتا؟ أخبريني السبب!».

فهزت الصغيرة رأسها:

«لا.. إنها ليست قصتي لأرويها. وكما قلت أنت، أنت لا تهتمين بأبي».

ركعت لورنا على ركبتيها، لتضرب الشمس على كتفيها. وقالت:

«الأمر يا إستاليتا أنني لا أنوي البقاء هنا. ولا أن أكون مربيتك أو مربية أحد آخر.. في كل إسبانيا!».

«أوه.. لكن يجب.. يجب أن تفعلي هذا!».

«ولماذا يجب؟».

«لأن.. حسناً.. لأنه هو قال هذا!».

«حسناً.. هو.. عليه أن يجد شخصاً آخر.. لا أريد البقاء هنا ولا يستطيع إجباري!».

«لا أنصحك بقول هذا سنيوريتا».

فوقفت على قدميها:

«لأجل السماء.. نادني لورنا أو لور.. لقد سئمت سماع سنيوريتا».

«حسناً.. حسناً.. أين أنت ذاهبة الآن؟».

«لست أدري.. لست أدري.. لماذا سافر تشارلي؟».

«لقد دفعه أبي الى ذلك. وأعطاه المال».

«ماذا؟».

«لا يمكنك توقع ذهابه دون مال؟».

فضحكت لورنا:

«هكذا إذن.. ولماذا لم يدفع لي؟».

«لست أدري.. هناك شيء غريب في الأمر».

أخذت لورنا تجمع أغراضها، فنظرت إليها إستاليتا وقالت ببساطة:

«لا تسافري».

«لكن جدتك..».

«لا حاجة لأن تعرف الحقيقة. بإمكانك القول أنك كنت مدرّسة قبل أن تعملي في أعمال مكتبية.. ليس لها صلة بالعالم المتمدن، ولا سبب يدفعها لعدم التصديق.. إذا قال أبي شيئاً فهو الصحيح!».

فغيرت الموضوع متجاهلة الألم الذي بدا في عيني إستاليتا، قبل أن يعود قناعها المعتاد الى وجهها:

«يجب أن أذهب لأغير ملابسي».

فردت الفتاة ببرود:

«كما تشائين سنيوريتا».

ترددت لورنا قليلاً، لكنها عادت واتجهت الى القصر بسرعة.

في الأيام التي تلت تبعتها الفتاة أينما ذهبت، حتى أنها طلبت منها الخروج معها في نزهة لاستكشاف الأماكن الريفية المحيطة بهم. كان هناك جياد في الإسطبل. لكن لورنا لم تكن راكبة ماهرة فرفضت الإنضمام الى إستاليتا.

كانتا يوماً جالستان في غرفة الجلوس، فالطقس رديء ومر اليوم مضجراً.. دخلت عليهم خادمة تحدثت الى إستاليتا بالإسبانية، وسمعت إسم السنيورا وزيندرو باستينو، فقطبت.

نظرت إليها إستاليتا:

«جوانيتا باستينو وإبنها زيندرو وصلا».

«إذن سأذهب الى غرفتي».

أمسكت الفتاة بيدها.

«بالطبع لن تذهبي.. أنت لست خادمة.. أنت صديقتي، وستبقين معي لتناول الشاي».

«صدقاً إستاليتا، لا أرتدي ثياب لائقة لإستقبال الزائرين».

www.elromancia.com

لكن الباب انفتح لتدخل جوانيتا باستينو يتبعها إبنها.

ووقفت إستاليتا لتستقبلها. فقالت جوانيتا:

«إستاليتا عزيزتي.. رائع أن أراك. زيندرو ضجر اليوم في المنزل لوحده. وتوسل إلي لزيارتك. ولم أستطع الرفض.. هل أنت بخير؟».

ردت عليها إستاليتا بالسؤال عن صحتها، متصرفة كمضيفة كاملة للمنزل. ثم نظرت جوانيتا الى لورنا، تتفرس بكل ما فيها ثم قالت:

«إذن سنيوريتا.. لا زلت هنا!».

«أجل سنيورا.. لكنني مسافرة قريباً».

«لسوء الحظ حصول ذلك الحادث لك».

فنظرت إستاليتا الى لورنا وقالت بعد أن استدارت الى جوانيتا:

«لقد كان ذلك غلطتي بقدر ما كان غلطتها، لو لم أكن مهملة لما زلقت لورنا».

فابتسمت لورنا الى الفتاة، فهذه المرة الأولى التي تعترف فيها بغلطتها..

«هكذا إذن.. إسمك الآن لورنا.. لقد أجبرت على كشف هويتك الحقيقية سنيوريتا؟».

فابتسمت وردت عليها بأدب:

«هذا بتحريض منك سنيورا».

فأجفلت جوانيتا:

«وجدتك إستاليتا.. أتعرف شيئاً؟».

«لا! ولا أظن أننا يجب أن نخبرها. سيخبرها والدي بنفسه عندما يرى ذلك ضرورياً».

ودقت إستاليتا جرساً تستدعي الخدم.. وأحست لورنا بالحرج.. فماذا يمكن أن تقول لهذه المرأة التي تعتبر ريكاردو ديلا غرانادا وابنته من أملاكها الخاصة. فوقفت:

«سأذهب الى غرفتي إستاليتا».

لكن جوانيتا هزت رأسها.

«أوه سنيوريتا، إبقي معي لنتحدث، إستاليتا وزيندرو يمكن لهما التسلي بالموسيقى».

فصاح زيندرو:

«أوه بلى ستيلا، فلنفعل هذا، لا أرغب في الشاي».

وهكذا بقيت لورنا وجوانيتا معاً:

«والآن سنيوريتا تعالي واجلسي بقربي.. أود التحدث إليك».

«عن ماذا؟».

«أوه، بهذا وذاك من أحاديث، تعالي واجلسي».

فأمسكت ظهر المقعد:

«الأفضل أن أبقى واقفة لو سمحت».

لماذا تريد هذه المرأة التحدث إليها؟.. لماذا؟

«كما تشائين سنيوريتا.. والآن يا عزيزتي السنيوريتا بيرانت، لماذا لا تخبريني سبب بقاءك هنا بينما تشارلي سافر منذ أكثر من أسبوع».

«لم أكن بصحة جيدة لتحمل السفر معه سنيورا».

«هكذا إذن.. لكنك الآن بخير، أليس كذلك؟».

«أجل».

«إذن لماذا لا زلت هنا؟».

«لم ترغب إستاليتا أن أتركها قبل عودة والدها من مدريد»..

«لماذا؟».

فاحمر وجه لورنا.. كيف يمكن أن تقول لهذه المرأة الأرستقراطية الباردة أن الرجل الذي تتوقع أن تتزوجه قد هددها لتبقى؟ وقالت:

«أظنها أعتقد أن هذا من الأدب».

www.elromancia.com

«كان من الأكثر أدباً سنيوريتا، لو أنك لم تأتِ الى هنا أصلاً. متخفية بدور خطيبة تشارلي. كنت أظن أن كرامتك ستمنعك من محاولة الدخول الى منزل إسباني آخر بعد المشاكل التي سببتها في حياة كريستينا».

«لم أسبب أية مشاكل في حياة السنيورا دالبوا سنيورا.. فالسنيور دالبوا كاذب إذا قال أنني حاولت.. أن.. أن.. أجذب اهتمامه! بل العكس لقد صددته! لكن لسوء الحظ لم أتمكن من إثبات هذا!».

«سنيوريتا! أنت وقحة! هل تتوقعين أن أصدق، أن مخلوقة مثلك قد تجذب اهتمام رجل ذكي ذو أصل نبيل مثل ألفونسو دالبوا؟».

«لا يهمني مطلقاً ما تصدقي سنيورا!».

«صحيح؟ صحيح حقاً؟ أقترح عليك أن تستحي من نفسك وتوضبي حقائبك، وسأوصلك بنفسي الى أقرب محطة قطار لتعيدك الى مدريد!».

فشهقت لورنا وقالت بلهجة كلها أدب:

«لا يمكن أن تكوني جادة سنيورا.. ليس لك أية سلطة هنا! وسأذهب عندما أريد، أو حتى يعتبر الكونت هذا ضرورياً!».

ببرود لورنا، أثار غضب جوانيتا. فوقفت على قدميها بحدة:

«سنيوريتا، أنت فظة وجاهلة.. لن أصغي الى مثل هذه الوقاحة منك!».

أحنت لورنا رأسها لثواني ثم قالت ببرود:

«أنت أثرت أية وقاحة بدرت مني سنيورا.. ولم يكن لدي أية رغبة في الجدال معك، فهذا لن يحل شيئاً. مغادرتي هنا هو من شأني الخاص، وليس من شأن أحد».

فارتجف صوت جوانيتا:

«هل طلب منك.. الكونت البقاء؟».

«بكل تأكيد».

فأخذت جوانيتا تذرع الغرفة بشراسة:

«لماذا؟».

«يريدني أن أكون مربية لإستاليتا!».

«ماذا..؟ أنت.. تعلمين إستاليتا؟»

«أجل سنيورا».

فعضت جوانيتا على شفتها بقوة:

«وهل ستبقي؟».

«أشك في هذا».

فضاقت عينا المرأة:

«ولماذا؟ هل لديك سبب للرفض؟».

فتنهدت لورنا:

«لأجل السماء سنيوريتا.. أيمكن أن نترك هذا الموضوع؟ لا أظن أنه يهمك بشيء».

«بل لي فيه كل الإهتمام. فأنا سأتزوج ريكاردو.. وقريباً سأعيش في الكاستيلو.. فهل تظنين أنني قد أرغب بك هنا.. تحت قدميّ!».

«لن أكون هنا سنيوريتا».

أدارت وجهها منها.. لكن جوانيتا أمسكت بذراعها لتديرها ثانية:

«لا تديري ظهرك لي سنيوريتا.. يبدو لي أن أسباب رغبة خطيبي في بقائك هنا له أساس خبيث. أليس كذلك؟».

جذبت لورنا ذراعها من السيدة الثائرة:

«أوه.. دعيني وشأني سنيورا. كلكم هنا مهووسين بالعلاقات السرية! حسناً.. ما كان يجب أن أجيء الى هنا أصلاً.. ويمكنك الإطمئنان أنني سأغادر في أقرب فرصة

www.elromancia.com

تتاح لي».

ووصل الشاي.. فجلستا تتناولانه، وحال أن انتهت لورنا حتى اعتذرت وغادرت الى غرفتها حيث رمت نفسها فوق الفراش.. تتساءل لماذا رماها القدر في هذا العذاب عند هذه العائلة.

في الصباح التالي، أخبرت لورنا إسنالیتا قرارها بالسفر، وبعد نقاش طويل تنهدت إسنالیتا:

«حسناً.. لورنا.. متى.. متى ستغادرين؟».

«لم أتصل بعد بمطار مدريد.. ربما أحصل على طائرة في الغد، وإذا وجدت باصاً يوصلني الى محطة القطار سأتجه رأساً الى مدريد».

«اليوم؟».

«ولماذا لا..؟ لا فائدة من إطالة العذاب».

فتوسلت إسنالیتا:

«على الأقل يوماً واحداً.. أعني.. هذا ليس بالكثير أطلبه منك».

ففكرت لورنا طويلاً:

«حسناً.. ربما.. أوكي إسنالیتا.. يوم آخر فقط».

وقت العشاء قالت لها الكونتيسة:

«قولي لي سوزان. هل تنوين حقاً الزواج من حفيدي.. لدي إحساس أن الأمور ليست على ما يرام بينكما. بالرغم من تأكيد ولدي».

فتنهدت لورنا:

«بإمكانك أن تقولي أن ليس كل شيء على ما يرام.. على كل، مشاكلنا يجب أن لا تقلقك.. وبما أنني استعدت عافيتي الآن، أفكر بالعودة الى أميركا حيث يمكننا تسوية خلافاتنا هناك».

وبدا الحزن على الكونتيسة:

«الى أميركا! أوه.. لكن بالتأكيد قال لي ولدي أنك باقية هنا لفترة طويلة».

وانقلب لون لورنا للأحمر:

«هذا.. لطف كبير من الكونت.. لكنني أفضّل العودة على أي حال».

«ومتى ستغادرين؟».

«ربما في الغد!».

«الغد! أوه لا سنيوريتا! لا يمكنك المغادرة في الغد. فهذا وقت مبكر بعد حادثتك. لقد قال لي الطبيب قبل أمس عندما تفحصين أنه سيجيء لزيارتك في الأسبوع القادم».

«أظن هذا مستحيل. ثم ان هذا ليس ضرورياً.. فانا بخير وقادرة على السفر، وسأراجع طبيباً في بوسطن».

فتنهدت الكونتيسة:

«أنتم الشبان مستقلون جداً. في أيامي كان الأكبر سناً يعرفون أكثر».

عند انتهاء العشاء، ذهبت إسنالیتا الى النوم، فتعجبت لورنا، عادة تخرجان سوية في نزهة، بما أن هذه آخر ليلة لها هنا فقد ظنت أن الفتاة غضبت لمغادرتها، فقررت أن تتمتع بنظرة أخيرة من الصخور والشاطيء تحتها.

عادت من نزهتها على الشاطيء بعد التاسعة بقليل، مقررة أن تخلد الى فراشها فوراً. القاعة كانت مهجورة لكنها سمعت أصواتاً في الصالون. ظناً منها أنها الكونتيسة، دخلت الغرفة.. توقفت كالميتة عندما شاهدت الكونت يجلس متراخياً فوق الأريكة، قدماه ممدودتان أمامه، سيكارة في يده وجريدة على ركبتيه. وبدا لها أنه أصغر سناً، أكثر قابلية للتقرب منه، لكن أكثر خطراً بكثير لراحة بالها.

وضع سيكارته بين أسنانه ووقف:

«أغلقي الباب وراءك سنيوريتا».

فارتجفت:

«لا أظن أن هناك شيء نقوله لبعضنا، سنيور كونت».

نظر إليها ساخراً:

«بل، هناك أشياء.. عظيم، ها أنت أفضل حالاً بكثير. كما سمعت».

«وممن سمعت هذا؟».

«من إستاليتا بالطبع. كما سمعت أنكما أصبحتما صديقتان».

«سمعت من إستاليتا؟ لكن كيف؟ أوه لا يمكن..! لا يمكن أن تفعل هذا!».

«لا يمكن ماذا؟ التحدث عنك؟ إنها لا تتحدث سوى عنك هذه الأيام.. لقد أعطيتها إنطباعاً جيداً سنيوريتا».

أحست لورنا بدموع غير مرغوب فيها تتقدم من عينيها فقالت:

«لا أريد بحث أي شيء معك سنيور. إسمع لست أدري ما ظنك بي أو ما تظن أنك قادر أن تفعل بي.. لكنني لن أبقى هنا. ولا تستطيع إجباري!».

«أوه.. أظن أنني أستطيع سنيوريتا».

«كيف؟».

إبتسم الكونت فخوراً بنفسه، إبتعد عنها، فاستردت أنفاسها:

«عندما سافر تشارلي من هنا قبل عدة أيام أعطيته مبلغاً من المال».

«أوه.. صحيح؟».

«أجل. فعلت هذا عن قصد لسببين: أولاً، لأتخلص منه.. ثانياً.. ليناشدك البقاء».

«لست أفهم سنيور.. كيف يمكن لتشارلي أن يناشدني البقاء؟».

«إنتظري وسأشرح لك.. المال هو المفتاح. وسيكون من السهل عليّ الإتصال بالبوليس الأميركي لأقول أن تشارلي سرق مني المال!».

«ماذا؟».

«أجل.. من السهل أن أجعل الأمر يبدو وكأن مبلغاً من المال خرج من خزنتي، دون علمي».

«ولماذا تظن أنني قد أهتم بهذا؟».

«لأنك يا عزيزتي السنيوريتا، عاطفية القلب.. وأنا أعرف عنك أكثر الآن. وأعرف أنك كنت تعرفينه منذ زمن. وأنك كنت خلال تلك الفترة مخطوبة تقريباً له، تقريباً. وهذا يدل على شيء.. فأنت تعرفينه جيداً ولا أظنك ستقبلين بتدمير سمعته متعمدة».

«ولكن أنت ستفعل؟».

«أجل.. أفعل».

«ولكن لماذا؟ لماذا؟».

«كما قلت لك قبلاً.. لديك نوع خاص من.. كيف أقول؟.. الجاذبية.. أنت مختلفة عن النساء الإسبانيات، كما كانت زوجتي مختلفة. إضافة الى هذا أنت إمرأة غير مترددة. حاولتي تدمير زواج صديق لي، ولعبت دور خطيبة رجل آخر. سمحت له بمغازلتك لأجل المال. فلماذا تعترضي لو قلت لك أنني أيضاً أجدك جذابة؟ ليس بنفس الطريقة التي قد أحب فيها إمرأة وأحترمها لدرجة الزواج، ولكن مجرد ترتيب مادي.. وهذا يناسبني تماماً. ثم انك مربية أطفال مثالية، وإستاليتا تحتاج الى مربية..».

لم تستطع لورنا تصديق ما تسمع.. وأحست بالرعب لكلماته وقبل أن تتاح له فرصة إيقافها، كانت قد صفعته

www.elromancia.com

بعنف على وجهه، غير عابئة بالجرح. ووضع يده على خده. ومرت بها لحظات إشفاق.. ثم سمعته يقول من بين أسنانه:

«أنا آسف لأن عرضي صدمك سنيوريتا.. ربما التفكير برجل مشوه يطارحك الغرام يجعلك تشعرين بالإشمئزاز.. لكن هذا لا يهم.. أنت كما أنت، وأنا لست بالرجل الذي يُخذل!».

فشهقت وهي تضغط بيدها على معدتها:

«أنت مجنون!.. مجنون!».

فرد ببرود:

«أوه.. لا. أظن أنني كامل العقل. على كل، أنت حرة في رأيك طبعاً».

«لكن.. لا يمكنك فعل هذا بي! فلو كنت المرأة التي تظنني فلماذا أهتم بما يحصل لتشارلي؟».

«من يعلم؟ لا أصدق أنك سيئة لهذه الدرجة، ولا أظنك راغبة في التسبب بمشاكل لرجل صديق لك».

«وهل تتوقع مني.. أن.. أن أخضع لرغباتك بسبب تشارلي؟».

«ولماذا لا؟ لا أظن الأمر سيكون كريهاً لك لهذه الدرجة!».

تقدم منها الكونت، فهزت رأسها تتراجع منه الى أن وصلت الجدار قرب الباب حيث توقفت دون حراك. وقف الكونت على بعد ستتمترات منها، ينظر إليها بعينيه السوداوين جرحه أعطاه مظهراً قاتماً.. فارتجفت من الخوف.

«لا تفزعي.. لن أؤذيك لورنا».

الطريقة التي لفظ بها إسمها بلكنته الأجنبية جعلت عظامها تذوب، قربه منها أذاب مقاومتها.. وأحست

بالإضطراب من تفوق قوته عليها.

ومد يده فجأة الى عنقها من خلف.. وبتنهيدة ألم.. جذبها إليه.. ليضمها إليه.. وانزلقت يداه على ظهرها، يداعبها بشوق، يثير فيها مشاعر لم تكن تعلم أنها تمتلكها. إشتعل كل جسدها للمسته. وأرادت بكل إرادتها أن تتجاوب معه:

وبجهد فائق من إرادتها تمكنت من الجمود.. فأحست به يغضب لبرودتها. فاشتد ضغط ذراعيه عليها حتى أصبح جسدها وكأنه يدخل في جسده. وتمتم:

«لورنا.. قبليني!».

فقاومته بعنف:

«لا!».

وتمكنت من وضع يديها على صدره، فدفعته بعيداً عنها. فجأة أصبحت حرة. وتراجع عنها، عيناه تلمعان بالغضب.. ثم تمتم بوحشية:

«إذن سنيوريتا لقد اكتسبت الإنقاذ المؤقت».

فهمست يائسة:

«أوه.. أرجوك.. دعني أذهب! لا تجبرني على البقاء هنا!».

فاستدار عنها قائلاً بخشونة:

«بإمكانك الرحيل.. إذا كان هذا ما تريدينه!».

«و.. تشارلي؟».

«أتركي أمره لي!».

«وهل ستورطه بجريمة.. متعمداً؟».

«قلت لك أتركيه لي..».

فشهقت بأسى:

«سنيور أرجوك.. لا أستطيع البقاء.. لن أستطيع الإدعاء بأنني مربية إستاليتا».

«ولماذا لا؟ لقد ادعيت من قبل أنك خطيبته».

«ذاك كان أمر مختلف. لم يكن فيه ارتباطات!».

«ومعي.. هناك ارتباطات».

وشهقت باكية:

«أنت تعرف! أنت لا تطاق! أنت عار على عائلتك! كيف لرجل بمثل سلطتك أن يتصرف.. بهذه.. بهذه.. الأخلاق البدائية؟».

فابتسم بسخرية:

«كل الرجال بدائيون سنيوريتا. كلنا نتشابه، تحت واجهاتنا.. كلنا له احتياطات، رغبات، مهما كان مركزه. وكونك جذبتني ليس سبباً للغضب.. فالعديد من النساء.. سيحسدنك».

«خذ واحدة منهن إذن».

فاستدار عنها وقال بهدوء:

«إذهبي الى فراشك سنيوريتا.. الوقت متأخر. وانت تعبة. وفي الغد سترين كل شيء مختلفاً».

«لا.. لا لن يتغير شيء! أوه.. أرجوك، أريد العودة الى بيتي!».

«بيتك؟ وأين يقع هذا؟ أستطيع القول أنه غرفة منامة في منزل مشترك في زقاق حقير في بوسطن.. أوه أجل سنيوريتا. أعرف كل شيء عنك.. أعرف أنك لا تمتلكين أي رباط مقرب لك.. ولا أحد يستفقدك. وهذا أمر مؤسف، لكنه مفيد بالنسبة لي».

فهزت لورنا رأسها عاجزة، والخوف يحطم أعصابها، واستدارت عنه والدموع بدأت تنهمر لتركض كالمجنونة الى غرفتها. أقفلت بابها بالمفتاح، وهي لم تستعمله منذ وصلت الى هنا. وأسرعت الى الحمام، لتتقيأ.. بعنف.. فيما بعد وهي مستندة الى الحائط أحست أن كل

مشاعرها قد جفت.

في الفراش، بيد مرتجفة وضعت حبتين من المنوم على لسانها وابتلعتها مع جرعة ماء.. ثم استلقت تنتظر رحمة النوم بعالمه الضبابي ليحل عليها.. كي يريحها من كل أفكار من أي نوع..

ذهلت لورنا في الصباح عندما وجدت الكونت قد سبقها الى مائدة الفطار. فوقف عند دخولها أدباً.. ثم قال:

«صباح الخير سنيوريتا، أرجو أن تكوني نمتي جيداً».

ولم ترد عليه. بل صبت لنفسها القليل من القهوة، وجلست بعيدة عنه قدر المستطاع. فوقف ليتقدم نحوها:

«عندما أتكلم لورنا، تصغين اليّ.. إذن.. الآن سنضع خطة لهذا الصباح. أقترح أن نذهب بنزهة في السيارة. إستاليتا ستذهب معنا.. وسأريك ماذا يعني أن أكون الكونت ديلا غرانادا».

«وهل لي الخيار؟».

«لا. لذا إنهي فطارك، ثم استعدي».

وقفت لورنا عن الطاولة، كارهة أن تجادله. ولا تنوي أن تدعه يلاحظ مدى توترها. وخرجت من غرفة الطعام في الوقت الذي كانت إستاليتا تدخل، فنظرت الفتاة إليها بحزن، فتوقفت لورنا لتقول:

«إذن إستاليتا.. أنت لست صديقتي.. بل الحارسة عليّ!».

نظرت الفتاة الى والدها:

«هذا ليس صحيحاً! بابا.. ماذا قلت لها!».

«الحقيقة كواريدا».

«إذن ماذا تعني لورنا؟».

«ماذا أعني.. عندما تتصلين بوالدك لتقولي له أني راحلة ليتمكن من المجيء الى هنا لمنعي!».

«هذا غير صحيح! . . بابا!».

فنظرت إليه لورنا:

«حسناً سنيور؟ أليس هذا ما قلته لي؟».

فأخذ الكونت نفساً عميقاً من سيكارته ثم قال ببرود:

«لا . . ليس هذا ما قلته. قلت أنها أخبرتني أنك أفضل حالاً. كذلك قالت لي أنك مسافرة في الصباح. . عندما وصلت الى هنا كل ما فعلتيه أنت أنك أخطأت الحساب. جمعت إثنين مع إثنين وحسبتها خمسة».

فتنهدت لورنا:

«هكذا إذن. . آسفة إستاليتا، يبدو أنني أنا المخطئة مرة أخرى».

«لا بأس لورنا. لكنك ستبقين. . أليس كذلك؟ ستبقين وتصبحين مربيتي. . .».

فهزت رأسها:

«الأفضل أن تسألي والدك هذا السؤال. . فالرد على أسئلتك تبدو مفهومة أكثر مما أتلقاه من ردود».

أدارت ظهرها. . لتذهب الى غرفتها. غيرت ملابسها مرتدية تنورة قطنية مشجرة وبلوزة دون أكمام بشرائط رفيعة، ثم وضعت صندالاً في قدميها وعادت الى النزول الى حيث كان الكونت وابنته ينتظرانها.

مع كل قلق لورنا. . انقلب اليوم ليكون رائعاً ومثيراً. أخذهما الكونت الى السفوح القاحلة الحارقة التي تقع فوق العزبة. . وشاهدت لورنا العنب ينضج تحت أشعة الشمس وبساتين الزيتون المنتشرة على مد النظر. . وبدأت عدائيتها للكونت تخف، واكتشفت أنه محدث لبق، يتحدث بسهولة عن العديد من الأمور، خاصة عن مزارعه. . حتى تلك اللحظة لم تكن قد نظرت الى عقله المفكر الذكي وراء تلك الواجهة المعجرفة.

بعد الغداء، الذي تناولوه في منزل ألبرتو بريغاندا مدير مزرعة العنب. عادوا نحو الساحل، حيث وفرت الكهوف الكلسية عند الشاطيء الأقبية الطبيعية لتخزين زيت الزيتون والغلال الأخرى. هناك وجدت لورنا، رفوفاً مليئة بالزجاجات وبراميل تعلوا حتى السقف.

فيما بعد قادهما الكونت الى «الميريا» حيث شاهدت في الميناء أماكن تخزين العنب والزيتون والزيت القادمة من المزرعة في براميل خشبية، لتصدر الى أنحاء العالم.

كان الوقت متأخراً عندما وصلوا الى الكاستيلو بعد أن تناولوا العشاء في الميريا، وأحست لورنا وإستاليتا بالتعب. وقال لهما الكونت بعد دخولهما الى القاعة:

«غداً سنحضر حفلة مصارعة ثيران. ستعجبك لورنا».

إحمر وجه لورنا، والتفتت الى إستاليتا:

«ألا يجب أن نبدأ بالدروس سنيور؟».

بدا الرعب على إستاليتا، فوضع الكونت يده على رأسها:

«لا . . ليس في الغد. بينما لدي وقت فراغ سأستفيد منه».

فهزت لورنا كتفيها:

«كما تشاء سنيور. . عذراً الآن. . فأنا تعبة. وأريد النوم».

«سأراكما صباحاً إذن».

خلال الأيام القليلة التالية، تخلى الكونت عن محاولاته إزعاج لورنا. فقد أخرجها وإستاليتا في عدة رحلات إستكشفت خلالها الريف حول الكاستيلو، وتعرفت على القليل من حضارة المنطقة. حضروا مصارعة الثيران. قضوا أمسية إحتفال للموسيقى الفولكلورية. . زاروا المتاحف، والمعارض الفنية، والآثارات العربية القديمة. . وذهلت

لورنا للمخزون من المعلومات التي يعرفها الكونت. . وبدأت تؤمن أن خلافها المبدئي معه لم يكن له أساس. وبدا لها أن من المستحيل أن يجد أي اهتمام بها وهو يمسك بيده سر «إفتح يا سمسم» لمنازل العديد من النساء الرائعات الجمال.

في نهاية الأسبوع ظهرت جوانيتا باستينو. . وصلت في الواحدة بعد الظهر بينما كانت إستاليتا ولورنا على الشاطيء. عندما عادتا، مبللتان مليئتان بالرمل، وجدتاها تجلس مع الكونت في الصالون، يشربان الشاي، والكونت ممدد باسترخاء على الأريكة. قطبت جوانيتا عندما شاهدت لورنا، ونظرت الى الكونت نظرة إستفهام:

«إذن سنيوريتا. . أنت ما زلت هنا؟».

ردت لورنا بهدوء وبطء:

«كما ترين».

هزت إستاليتا كتفيها بعدم اكتراث وقالت بأدب:

«كيف حالك تيا جوانيتا؟».

«بخير، شكراً لك إستاليتا. تعالي واجلسي قربي وأخبريني ماذا كنت تفعلين طوال هذه المدة. أنا وزيندرو شعرنا بالوحشة. . وريكاردو هنا منذ أسبوع ولم يجد الوقت لزيارتنا بعد».

إحمر وجه إستاليتا حنقاً، واتجهت لورنا الى الباب حين وصلت الكونتيسة. فصاحت تمسك ذراعها برقة:

«أنت لست ذاهبة يا عزيزتي. . أليس كذلك؟ لقد جئت لأتناول الشاي مع جوانيتا ويجب أن تبقي معنا لتناول الشاي كذلك. . هه ريكاردو؟»

«بالطبع ماما. . إذا كانت هذه رغبتك».

ونظرت إليه لورنا ساخطة وأسرعت لتقول بحدة:

«الأفضل أن لا أبقى سنيور».

فتمتم:

«لكنك ستبقين».

«حسناً سنيور».

وجلست حيث أشار، ولأول مرة منذ أيام أحست بالتوتر. سيطرت جوانيتا على الحديث طوال فترة تناول الشاي. . ولاحظت لورنا أنها تتمتع باستيضاح إستاليتا عن بعض الأمور. . وربما تكون هذه هي الطريقة التي تحصل فيها أحياناً على رد عن أسئلة خاصة.

أدارت جوانيتا رأسها الى الكونت سائلة:

«هل حضرتم الكرنفال، كواريدو؟».

«أجل جوانيتا. . لقد كان رائعاً».

«لكنك لم تطلب مني الذهاب معكم. وأنت تعرف أنني أحب الموسيقى الفولكلورية. . هل أخذت إستاليتا. . ووالدتك؟».

فهزت الكونتيسة رأسها:

«وماذا يهمني أنا من الفولكلور، جوانيتا؟ ريكاردو أخذ إستاليتا والسنيورا هولاند».

فشهقت جوانيتا:

«السنيورا هولاند؟».

فنظر إليها الكونت محذراً:

«أجل. . الآنسة هولاند».

«هكذا إذن. . وهل تمتعت بالإحتفال سنيوريتا؟».

فابتسمت لها لورنا ببرود:

«كثيراً جداً. . شكراً لك».

فوضعت جوانيتا فنجانها بعنف على الطاولة:

«ومتى قررتي الرحيل سنيوريتا؟».

فهزت لورنا كتفيها هازئة:

«لست أدري. . .».

www.elromancia.com

وقالت إستاليتا بفرح:

«السنيوريتا ستبقى الى أجل غير محدود. وستصبح مربيتي!».

ذهلت جوانيتا وسألت الكونت:

«هل هذا صحيح ريكاردو؟».

فرد الكونت بإقتضاب:

«أجل.. لكن هذا ليس شأنك جوانيتا.. تعالي، سأريك اللوحة التي اشتريتها منذ عشرة أيام. إنها لجون ميرو، الرسام السوريالي.. وستعجبك».

«لكن الأمر يهمني عزيزي.. على كل الأحوال قد تظن والدتك أن من الغريب أن تتخلى السنيوريتا عن وظيفتها في أميركا دون سابق إنذار».

فنظر إليها الكونت نظرة قاتمة:

«هذا ليس من شأنك جوانيتا.. إذا اختارت السنيوريتا البقاء، فكلنا مسرورن.. وبالطبع لن تعارضي حصول إستاليتا على مربية تعلمها وتتفق معها، وهذا واضح؟».

فقطبت جوانيتا:

«الأمر غير عادي قليلاً.. هذا كل شيء، ألا تظنين هذا عزيزتي الكونتيسة؟».

وظهر عدم الإهتمام على الكونتيسة وردت ببرود:

«كل ما تقرر سوزان، أوافق عليه تماماً.. هل وضعت السكر في الشاي أم لم أفعل؟ أترين جوانيتا لقد جعلتني أنسى!».

فوقفت جوانيتا على قدميها بامتعاض وقالت بحدة:

«سأرى لوحة ميرو يا ريكاردو».

وتوجهت نحو الباب دون التفوه بكلمة.

في الصباح التالي استيقظت لورنا أبكر من العادة.. لم تكن قد نامت جيداً الليلة.. واعتقدت أن السباحة في مياه

المتوسط الدافئة ستنعشها.

الرمال كانت بدأت تدفأ تحت حرارة الشمس.. لكن الجو لا يزال بارداً حتى أنها ارتجفت.. وسبحت مجبرة تفكيرها على التوقف. وطافت على ظهرها تاركة شعرها يطفوا من حول وجهها وكأنه العشب المائي. ثم عادت الى الشاطيء لتسير الى الرمال تجفف الماء عن شعرها.

توقفت مذهولة لرؤية الكونت يتمدد باسترخاء قرب روب البحر الذي وضعته على الرمال.. ثم تقدمت بخطوات بطيئة:

«صباح الخير سنيور. لم أتوقع وجودك هنا».

«ربما.. وربما من الأفضل أن تناديني ريكاردو عندما نكون لوحدنا. لست أهتم بالرسميات معك».

«بل أفضّل الرسميات سنيور».

أمسك بمعصمها وشدها لتجلس قربه.. فقاومته وقال لها:

«لماذا تحاربيني..؟ لمرة واحدة على الأقل كوني خاضعة!».

وأخذت تدير رأسها من جانب الى آخر:

«أكرهك! أكرهك!».

«وماذا تكرهين..؟ الرجل.. أم الجرح؟».

«جرحك لا يزعجني!».

وبانقطاع النفس، لم تعد تعي إلا وجود، دفء شوقه، ثقل جسده الرجولي.. وأكثر شيء عينيه وفمه.. رغبت في أن يعانقها. وكما في السابق، جاذبيته الغامرة رمت بحذرها بعيداً.. ومد يده الى مؤخرة عنقها. فتأوهت غير قادرة على منع نفسها: «ريكاردو!» وبصيحة انتصار ضمها إليه.. وتمتم دافناً وجهه في شعرها النصف مبتل:

«إذن.. أنت لا تكرهيني حبيبتي!».

كما تخيلت أكثر من مرة في أحلام يقظتها الغبية، كان خبيراً في الحصول على ما يريد.. وهو الآن يريدها.. والأخطر من هذا أنها بدأت بدورها تريده. وهذا شيء لم تختبره من قبل. لم تشعر يوماً بهذا الشوق يتصاعد من أحاسيسها حتى أنها تلهفت لمعانقته بقوة حتى يتحد جسديهما.

لكن.. بجهد يفوق طاقة البشر، فاجأته، وانفلتت من بين ذراعيه.. ووقفت على قدميها تاركة روب البحر والمنشفة وركضت بسرعة الى المنزل وهي تسمعه يصيح غاضباً يأمرها بالعودة.

وصلت الى غرفتها دون أن تلتقي بأحد.. واستحمت كي تزيل الرمال من شعرها والملح عن جسدها. وهي تجفف نفسها وترتدي بنطلوناً ضيقاً وبلوزة دون أكمام، أخذت تتساءل لماذا لا تنهض حقائبها وترحل.. تنهدت.. لماذا لا ترحل فعلاً؟ بإمكانها الفرار بسهولة. فليس من الصعب مغادرة الكاستيلو دون أن يراها أحد.. فلماذا لا تفعل؟

هناك رد واحد.. تعرفه طوال المدة.. أنها لا تريد أن ترحل. قد تقاوم الكونت.. بكل ذرة من كيانها.. قد ترفض أن يمتلكها.. لكن في أعماقها.. هذا ما ترغب فيه. لكن ليس حسب شروطه! هذه هي الحقيقة.. مهما فعل معها، وكيفما عاملها، وبأية طريقة يعاقبها.. إنها تحبه..!

كان الوقت متأخراً عندما نزلت لتناول الفطار. كانت إستاليتا لا تزال هناك تحدق بمزاج سيء الى الفراغ. ورفعت نظرها عندما دخلت لورنا:

«لقد تأخرت.. ظننتك لن تنزلي أبداً».

فجلست لورنا:

«آسفة حياتي.. لقد نزلت الى الشاطيء، لأسبح قبل الفطار ثم عدت لأستحم قبل أن أرتدي ثيابي وأنزل الى هنا».

«أوه.. هكذا إذن.. هل كنت تعلمين أن والدي مسافر اليوم؟».

فذهلت لورنا:

«لا.. أعني.. هل سافر؟».

«أجل.. ولم أره. لكنه سافر. قالت روزيتا أنه لم يتناول الفطار حتى».

فابتلعت لورنا ريقها:

«وأين.. ذهب؟».

«الى مدريد كما أظن.. كنت أتمنى لو قال لي أنه مسافر. لا أستطيع سوى أن أربط زيارة جوانيتا له بمغادرته المفاجئة».

فخفق قلب لورنا:

«لماذا؟».

«لست أدري.. ربما قالت له شيئاً. فهي بكل تأكيد تعترض على وجودك هنا. ربما تغار منك».

«هذا أمر سخيف!».

«وما السخافة فيه؟ لقد ظننت أن والدي يتمتع بصحبتك ألم يثبت لك هذا الأسبوع الماضي؟».

فتنهدت:

«كان أسبوعاً لا يحتسب من الزمن. ليس لديك فكرة عما يظنه والدك بي!».

«أنت تتخيلين الأشياء! لو أنك تعرفينه منذ زمن لأدركت أن معاملته لك هي معاملة.. معجب بك.. أكثر من أي شيء آخر. أنت لست كجوانيتا، أو النساء الأخريات اللواتي يحاولن جذبه. في الواقع.. أظنك تخرجين عن

www.elromancia.com

طباعك العادية لتزعجيه.. وربما هذا هو سر جاذبيتك له».

«لأجل السماء إستاليتا.. دعينا لا نذكر الموضوع بعد. ليس لديك فكرة عما تتحدثين عنه. هذا الكلام يشبه الشائعات التي نقرأ عنها في المجلات النسائية!».

وابتسمت محاولة ترطيب الجو وتغيير الحديث. هزت إستاليتا كتفيها ووقفت:

«حسناً.. لقد ترك تعليماته كي نبدأ الدروس.. والأفضل أن نفعل».

«وهل ترغبين في هذا حقاً؟».

«حسناً.. لو فعلنا فلن يكون لديك الوقت للتفكير بالرحيل».

«حسناً.. هيا بنا نبدأ».

وهكذا أمضت لورنا أيامها تدرس إستاليتا، وتكتشف ما يعجبها من العلوم.. علمت أنها تحب الشعر الإنكليزي، والعلوم الإجتماعية.. إستاليتا كانت تشابه والدها، بقدرته على التعلم والتعبير عن نفسه.. وهكذا كانت لورنا دائماً راضية معها.

لكن.. خلال الليل والقمر يقف منخفضاً فوق الكاستيلو، كانت تجلس الى النافذة، تستمع الى هدير البحر. وهمهمة حيوانات الليل اللطيفة. تتساءل أين هو الكونت الآن.. ماذا يفعل.. ومتى سيعود ليطالب بامتلاكها.

بعد ظهر أحد الأيام الحارة، بعد حوالي الأسبوعين على غياب الكونت.. أخذت الكونتيسة حفيدتها بنزهة في السيارة. ودعت لورنا لمرافقتهما. لكنها رفضت متذرعة بحاجتها على الإستحمام وإصلاح بعض الملابس.

بعد خروجهما استحمت، وجمعت الملابس التي بحاجة لتصليح وتوجهت الى أيكة ظليلة تحت شجرة

«مانيوليا» ضخمة.. حيث جلست تمشط شعرها ليجف بحرارة الهواء.. فوجئت بسماع وقع أقدام تقترب منها. فالتفتت ناحية القصر لترى جوانيتا باستينو تتقدم هي ولويزا مدبرة المنزل نحوها.. عندما شاهدتها جوانيتا صرفت المرأة. وتقدمت لتنضم الى لورنا في الأيكة. وقالت ببرود:

«إذن سنيورينا.. لا زلت هنا. ولوجدك. قالت لي لويزا أن الكونتيسة وحفيدتها خرجتا لنزهة».

«هذا صحيح سنيورا.. كيف حالك؟».

«بخير تماماً.. سنيورينا».

فأشارت إليها لورنا بأدب الى مقعد قربها:

«ألن تجلسي سنيورا؟».

«لا.. ليست لدي الرغبة لأجلس معك.. سنيورينا!».

«لكنك جئت الى هنا، لقد طلبت من لويزا أن تدلك على مكاني كي تريني.. سنيورينا».

«صحيح.. لكن ليس للأسباب التي تظنينها».

فتنهدت لورنا:

«لأية أسباب إذن؟».

هزت جوانيتا كتفيها دون اكتراث، وبأرستقراطية:

«عندما وصلت كنت أنوي الحصول على لحظات معك على انفراد. لكن عندما وجدت أن الكونتيسة وحفيدتها خارج المنزل.. أحسست بالسرور.. ليس لأنني لا أرغب في رؤيتهما، مع أن إستاليتا أظهرت بعد الفظاظة نحوي مؤخراً. بل لأن هذا بكل بساطة يعطيني الفرصة لأراك دون خوف من أن يسمعنا أحد».

فأجفلت لورنا وقالت:

«سنيورا.. هذه ثالث مرة نتكلم فيها.. كيف أقول؟.. عن الكونت. فأنا واثقة أن هذا ما ستقولينه، وبصراحة،

www.elromancia.com

سئمت وتعبت من هذا الحديث. ولا أرغب في أن أكون فظة معك. سنيورا، لكن إذا كان لديك أية شكوى حول وجودي هنا فما عليك إلا بحثها مع الكونت شخصياً.. وليس معي!».

فصاحت جوانيتا مجفلة:

«لا تكوني وقحة هكذا سنيوريتا! أنت محقة طبعاً.. فأنا فعلاً أرغب في التحدث عن ريكاردو، ولست أنوي أن أبحث عن هذا الأمر الخاص والمؤلم معه».

«سنيورا.. ليس هناك المزيد ليقال..».

«بالعكس. هناك الكثير لم يقل بعد.. مثلاً.. لماذا، وأنت لست راغبة في البقاء هنا.. تبقين؟».

«وهل قلت لك أنني لست راغبة في البقاء؟».

«لا.. ليس اليوم. لكن في المرة الماضية التي تحدثنا فيها معاً».

«لا أظنني على استعداد لمناقشة أسباب بقائي معك، سنيورا!».

«لا؟ إذن دعيني أقولها لك سنيوريتا.. هل أفعل؟ سبب بقائك هنا هو حبك للكونت!».

أصاب الذعر لورنا فصاحت:

«سنيورا!».

«أيمكنك إنكار هذا؟ لا.. لن تستطيعي. عرفت هذا منذ زمن، طبعاً لكن ظهر لي كذلك أن لديك فكرة بأنك لو بقيت هنا.. لو سمح لك الكونت بالبقاء هنا، فقد تجذبينه إليك! كم أنت غبية سنيوريتا لتتصوري أن الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا قد يكون مهتماً بك! لا أقول أنك غير جذابة.. بطريقة بدائية.. حقيرة..».

«كيف تجرؤين على هذا الكلام!».

فتابعت المرأة دون مبالاة:

«.. من الجائز أنك بإعطائك بعض التشجيع للكونت.. فقد يفكر بالإستمتاع في اللعب معك قليلاً.. ولكن أبداً.. ولا للحظة واحدة.. لا تتصوري أن الأمر أكثر من هذا!».

«ما الذي يعطيك الحق في المجيء الى هنا والتحدث معي هكذا؟ أنت لست حتى مخطوبة له!».

فرفعت جوانيتا رأسها:

«لا ينقصنا سوى الرسميات أؤكد لك.. نحن لا نستعجل الأمور كما تفعلون في بلادكم. فتقعون في الأخطاء وتدفعون الثمن. لقد حذرتني كريستينا.. السنيورا دالبوا.. منك! وأخبرتني كم أنت أفعى بين العشب!».

ووقفت لورنا مرتجفة.. وقالت بضعف:

«هل لك أن تذهبي من هنا؟ لست مضطرة لسماع مثل هذا.. منك!».

«إجلسي.. إجلسي سنيوريتا!».

عادت لورنا الى مقعدها مشدوهة، ووضعت السنيورا يديها على خصرها:

«والآن سنيوريتا.. سأقول لك شيئاً قد تجدينه مهماً. ألم تسألي يوماً لماذا لا يرحبون بتشارلي هنا؟ يجب أن تعرفي! ثم لا تنكري أنك تستغربين جرح ريكاردو البشع».

فقالت لورنا دون تفكير:

«إنه ليس بشعاً!».

فصاحت جوانيتا باشمئزاز:

«بل إنه مقرف! لكنه لا يهم.. عندما ستتزوج سأقنعه بإجراء عملية تجميل لإزالته. وهكذا سأقول لك.. تشارلي، خطيبك المزعوم، كان له علاقة مع جانيت.. زوجة ريكاردو!».

«ماذا؟ لكن جانيت منذ عشر سنين كان لها إبنة عمرها

www.elromancia.com

ثلاثة سنين!».

«هذا صحيح.. ومنذ عشر سنين كان عمرها خمسة وعشرين. وكان تشارلي في العشرين. لكن هذا لم يمنعهما! فهي لم تكن من النساء اللواتي يهتممن بمن يؤلمن في سبيل ملذاتهن! إذن لهذا يكره الكونت إبن أخته. ولسبب قوي لكن كل هذا لا يفسر وجود الجرح».

«سنيورا.. هذا ليس من شأني.. وأنت تكشفين أسراراً عائلية أمام غريبة».

«صحيح.. ولي أسبابي! يجب أن أجعلك ترين مدى حماقتك! لكن إنتظري.. لم أنته بعد.. عندي المزيد.. يجب أن أخبرك كيف قتلت جانيت!».

كرهت لورنا نفسها لرغبتها في معرفة الحقيقة فتوسلت إليها:

«لا تكملي.. لا أريد أن أعرف!».

«ستعرفين بكل تأكيد سنيوريتا! أنت جبانة، وربما خائفة مما قد تسمعي!».

«ربما.. لكن على الأقل أنا صادقة! ولا أدّعي شيئاً لست عليه!».

فشهقت جوانيتا:

«أنت! وهل تجرؤي على قول هذا وحياتك كلها إدعاء! ألم تعلم الكونتيسة بعد أنك لست خطيبة تشارلي؟ ألم تتوقعي الحصول على حصة مما كان سيبتزه من جدته؟».

فوقفت لورنا على قدميها بغضب:

«أيتها.. العاهرة!».

«لا تتجراي على نعتي بأسماء قذرة، وإلا لأسمعتك بعضاً منها لن تحبي سماعها! فكلماتي قد تكون أكثر دقة في الوصف مما تستخدمينه!».

«حسناً.. أنت عاهرة! ولا أظن ريكاردو يعرف نوعية

المرأة التي يعرفها!».

«لا تنطقي بإسم ريكاردو هكذا دون اكتراث. إنه الكونت ريكاردو فرديناند كونسويلو ديلا غرانادا. ولا تنسي هذا مطلقاً!».

«وكيف يمكن أن أنسى هذا؟».

«حقاً.. كيف لك أن تنسي رجلاً مميزاً مثله.. وهناك شيء آخر يجب أن تعرفيه.. ليلة قتلت جانيت كانت هاربة من ريكاردو الى تشارلي.. لكنني لا أعلم إذا كان يعرف تشارلي بهذا أم لا. وليس من الصعب تصور سبب تحطم سيارتها. لكن مقتلها كان له وقع كارثي على ريكاردو. لكنه لم يتحطم تماماً فهو لم يكن يحبها..».

«لكنها كانت أم طفلته».

«كان زواج مصلحة.. لا شيء سواه. على كل الأحوال لفترة طويلة فقد استقراره واتجه الى قيادة سيارات السباق، لينسى همه... وسائقي السباق معتادون على تحطيم سياراتهم، لكن آخر حادثه له، كاد يفقد فيها حياته.. عاد الى رشده وأدرك أن له إبنة وحياة خاصة به».

«لكنني لا أرى ما دخلي بكل ما تتحدثين عنه؟».

«سأشرح لك أكثر. أنت تشبهين جانيت قليلاً. فهي كانت شقراء، وزرقاء العينين..».

«لكن عيناي خضراوين».

«لا يهم.. أنت تشبهينها ما يكفي. كما أنك جئت الى هنا كخطيبة تشارلي.. ويبدو لي أن ريكاردو يود استغلالك لإرضاء مرارته ضد تشارلي وجانيت!».

هل يمكن أن يكون صحيحاً أنه يبقيها هنا لهذا السبب؟ هل هو يستغلها ليخلص نفسه من مرارته نحو جانيت؟ وهل يمكن أن يكون يحاول تحطيم تشارلي باستخدام المال كسلاح؟ هل كان يعمل حقاً خلال غيابه؟ أم أنه غاب

www.elromancia.com

لسبب أعمق من هذا؟ وهل تجلس هنا، تنتظره وكأنها الحيوان الخنوع، وهو في الواقع يضحك منها؟

وأخيراً نفذ ما عند جوانيتا.. فغادرت المنزل.

وحتى الوقت الذي عادت فيه الكونتيسة وإستاليتا كانت لورنا قد صممت على شيء.. سوف ترحل، الليلة، دون إخبار أحد. وستترك رسالة لإستاليتا، ستجدها بعد أن تكون قد ابتعدت أميالاً عن كاستيلو ديلا غرانادا.

جلست بعد العشاء وقد وضبت ما تستطيع من متاعها، تنتظر الهدوء ليحل على المنزل. ونظرت الى ساعتها، تجاوزت منتصف الليل بقليل.. وسيمضي على الأقل ثمانية ساعات قبل أن يكتشف أحد غيابها.

فتحت الباب، ووقفت لحظات تصغي.. فتأكدت من عدم وجود أي صوت. فحملت حقائبها، وتسللت ببطء.. القصر غريب ومخيف ليلاً دون أضواء.. وفتحت الباب الخارجي.. الفناء في الخارج مهجور.. كانت تعرف أن السائق لا يهتم بإقفال الكاراج أو السيارات. ولن تجد صعوبة في إخراج سيارة. وقررت لورنا إستعارة سيارة جيب مغبرة يستخدمها الخدم في شراء حاجيات القصر من القرية القريبة.. كانت المفاتيح معلقة في مكانها، فوضعت حقائبها في المؤخرة، وصعدت. إدارة المحرك مشكلة. لكن بعد عدة محاولات تحرك. وأخذت ترتجف متوترة وهي تقود السيارة عبر الجسر المعلق لتخرج الى الأراضي الريفية الممتدة أمام الكاستيلو.

أنوار المحطة كانت تقترب منها على مشارف القرية. ونظرت الى ساعتها إنها فقط الثانية والنصف، على الأقل ستمر أربع ساعات قبل وصول أي قطار في أي إتجاه. ودخلت فناء المحطة، وأوقفت السيارة.. آملة أن لا يشك أحد بها في مثل هذه الساعة من الصباح. ثم جلست

تنتظر، تشعل سيكارة قبل أن تطفيء الاخرى.

لا شيء يحطم الأعصاب أكثر من الإنتظار في مثل هذه الساعات الميتة قبل الفجر.. وربما سيكون هذا آخر إطلالة للشمس تشهدها في إسبانيا.

وصولها الى مدريد كان بعد موعد الغداء.. القطار كان يتوقف عند كل محطة صغيرة أو كبيرة على الطريق، والشمس أحرقتها من خلال النافذة.

إتجهت رأساً الى مقصف المحطة تشتري سندويش، وبعض القهوة. ووجدت بضع نقود معدنية إستخدمتها لتتصل بالمطار لتجد إن كان بإمكانها السفر متأخرة هذا المساء. فقبلت بسرور.

أمضت طوال الظهر في المكتبة العامة تتسلى بالقراءة، ثم ركبت سيارة تاكسي الى المطار.. حتى هذا الوقت لم تعد قادرة على ترك عينيها مفتوحتين. وأصبحت الحقائب أثقل وزناً.. أضواء المطار كانت لامعة، وجلست تنتظر لتستدعى الى المطار.. لكن ما أن استقرت على مقعدها في الطائرة، حتى استرخت تماماً، وسمحت للإغفاء بأن يمحو كل التوتر عن أعصابها.

لم توقظها المضيفة إلا مرة لتناول الطعام، ثم مرة أخرى عندما حطت الطائرة في مطار بوسطن.. وبعد أن أصبحت لورنا تحس بالخدر التام.

ذهلت السيدة بيرسون لدى رؤيتها لورنا:

«آنسة تيرانت.. كنت أعتقد أنك ستغيبين على الأقل ستة أشهر؟».

«لقد ألغيت وظيفتي.. ما الأمر؟ هل أجّرت غرفتي؟».

«لا.. ليس بالمعنى الحقيقي للكلمة آنسة».

«ماذا تعني سيدة بيرسون؟ بالمعنى الحقيقي للكلمة؟».

فكتفت المرأة ذراعيها حول صدرها النحيل:

«حسناً.. الأمر هكذا: إبنتي سندي تركت زوجها.. لقد تشاجرا. وتركتها تنام في غرفتك».

«هكذا إذن.. وأغراضي؟».

«لقد وضعتها في المخزن تحت السلم يا آنسة. لم أكن أعرف أنك ستعودين بسرعة».

أحست لورنا بالوحدة.. لطالما بدت لها غرفتها كواحة وسط صحراء من مشاكل.. حتى هذه الآن سلبت منها.

«هل لديك غرفة أخرى؟».

«ليس الآن.. هناك شاب في الرقم عشرة، قد يتركها بعد أيام.. ويمكنك أخذها».

«وحتى ذلك الوقت؟ ماذا تقترحين أن أفعل؟».

«آسفة.. لست أدري آنسة. ألا يمكنك السكن في فندق؟ أعني أنك عائدة لتوك، ولا يمكن أن تكوني مفلسة.. صحيح آنسة؟».

أرادت أن تبكي، أن تصرخ بالمرأة لتقول أن ليس من حقها تأجير غرفتها وهي تدفع أجرها. ليس من حقها أن تلمس أغراضها.. لكنها التقطت حقائبها وأدارت وجهها ومشت.. فصاحت السيدة:

«ألا تريدين الغرفة عندما يغادرها المستأجر؟».

لم تنظر لورنا الى الخلف، أحست أنها مشردة، منهوكة.. فسارت، والتقطت الباص الى محطة القطار، حيث تركت حقائبها في مكتب الحقائب.. وخرجت لتفتش عن مكان تسكن فيه، وعن عمل. في وقت متأخر وجدت الأمرين معاً. شابان متزوجان عاملان يرغبان في مربية لإبنتهما الصغيرة البالغة ثلاثة سنوات، تدعى ساندرا.. كانت وكالة التوظيف قد أرسلت ثلاثة مربيات وجدهما الزوجان مورلي، غير مناسبات. يريدون مربية شابة، ولورنا ناسبتهما. فتم قبولها على أساس التجربة شهراً. أعطيت

غرفة مريحة خاصة مع حمام.. ولم يكن أمامها سوى الطفلة ساندرا لترعاها.

لكن، في الأيام التالية، إكتشفت ديانا مورلي، أن مربية طفلتها الشابة، ليست هادئة مستقرة التفكير كما يبدو عليها.. هناك شيء في عيني لورنا الواسعتين، المتألمتين.. قال لها أن الفتاة قد عانت عاصفة عاطفية مؤخراً، وعندما سألتها صمتت لورنا. ولم تحاول ديانا أن تتدخل أكثر في المسألة.

في إحدى الأمسيات، أحست أنها لم تعد تتحمل، ففتشت دفتر الهاتف لتجد رقم تشارلي ماك كاين، واتصلت بشقته، لترد عليها فتاة.. فسألتها لورنا:

«تشارلي ماك كاين موجود؟».

فسألتها الفتاة ببرود:

«من المتكلم؟».

«صديقة.. هل هو هنا؟».

«أجل.. أتريدين التحدث إليه؟».

«أجل أرجوك».

وسمعت صوت جدال مخنوق ثم تحدث تشارلي:

«إسمعي.. من أنت؟».

«أنا.. لورنا تيرانت».

«لورنا..! فلتحمنا السماء! أين كنت طوال هذه المدة؟».

فشهقت:

«أين كنت؟ ألا تعرف أين كنت؟».

«لقد اختفيت.. منذ ثلاثة أسابيع».

«وكيف عرفت هذا؟».

«كيف عرفت؟ فليساعدنا الله.. كيف عرفت؟ عرفت لأن خالي العزيز كان يصب النار على رأسي منذ ذلك

www.elromancia.com

الوقت!».

فتمتمت هامسة:

«ريكاردو!».

«ريكاردو.. إذن هو ريكاردو الآن.. أليس كذلك؟».

فصاحت به:

«توقف عن هذا تشارلي.. لكن يجب أن تقول لي. هل هددك خالك بمقاضاتك؟».

«مقاضاتي؟ اللعنة، لقد هددني بكل ما هو سيء ولعين.. لكن مقاضاتي؟ لا! ولماذا يريد مقاضاتي؟ إختفاؤك ليس ذنبي!».

«لا.. لكن بسبب المال.. ! ماذا عن المال!».

«أي مال؟».

«أنت تعرف.. المال الذي أعطاك عندما تركت الكاستيلو».

«أوه ذلك المال! لم أكن أعرف أن ريكاردو العجوز بهذا الكرم!».

«وهل عاد.. الى إسبانيا؟».

«لا.. لماذا؟».

«مجرد فضول».

«هاي.. ما هو عنوانك على كل الأحوال؟ لأجل السماء لا تقفلي الخط قبل أن تعطيني عنوانك!».

«لماذا؟».

«لأجل خالي ريكاردو، بالطبع. يريد رؤيتك».

«لكنني لا أريد رؤيته.. وداعاً تشارلي».

«لا.. هاي.. لورنا..».

لكن لورنا أعادت السماعة مكانها.. إذن كان يخدعها طوال الوقت. وهو لم يكن ينوي مطلقاً مقاضاة تشارلي. هل كانت حمقاء عندما قررت السفر؟ خاصة الى مكان من

المؤكد أنه سيبحث عنها فيه؟ ولماذا جاء حقاً؟

بعد ظهر أحد الأيام أخذت لورنا الطفلة الى حديقة الحيوانات. ووقفتا هناك في طقس أيلول البارد تشاهدان الدببة.. فوجدت لورنا نفسها تتساءل عما سيكون عليه الأمر لو أن لها طفلة، تأخذها الى حديقة الحيوانات. لكان هذا يعتمد بالطبع على من سيكون والد ذلك الطفل. على كل الأحوال من غير المحتمل أن تتزوج الآن.

عادتا الى المنزل متأخرتان: وجهاهما حمراوان من البرد. ديانا كانت في المنزل، ففتحت لهما، تبتسم بمرح.

«أوه.. مرحباً حبيبتي.. هل أمضيت وقتاً ممتعاً مع لورنا؟».

«أجل مامي، لقد شاهدنا كل الحيوانات.. هل يمكن أن نذهب ثانية؟».

«ربما حبيبتي فيما بعد.. لورنا هناك شخص يريد رؤيتك!».

وأحست لورنا أن الدم جف من وجهها.. فأمسكت ديانا بذراعها:

«لورنا.. ما بك؟ مما أنت خائفة؟».

«لا شيء.. لا شيء.. مَن هو سيدة مورلي؟».

«في الواقع حبيبتي.. إنه يقول أنه كونت!».

وأرادت لورنا أن تهرب، تركض وتركض.. وفتح باب غرفة الإستقبال. ووقف ريكاردو هناك، ينظر إليها فقط.. وعلمت أن أيام هروبها قد انتهت. وقال بخشونة:

«حسناً.. لورنا.. أخيراً وجدتك!».

أخذت ديانا تنظر من واحدهما الى الآخر. ثم أخذت الطفلة المتمنعة لتجرها بعيداً عن السمع والبصر. وبدأت لورنا تخلع معطفها، فقال الكونت بحدة:

«إنتظري! سنخرج لا يمكننا الكلام هنا!».

www.elromancia.com

إرتجفت لورنا بالرغم من دفء الشقة.. ولاحظت أنه أنحف مما تذكر. والخطوط في كل وجهه أعمق، والجرح أكثر بروزاً دون أن يتكلم، رافقها الى الخارج ثم نزلا السلم والى الشارع في عتمة بعد ظهر أيلول.. وقطعا الفناء نحو سيارة فخمة سوداء. وساعدها على الصعود ثم استدار ليصعد في مقعده.

أدار المحرك، وقاد بكل خبرته خارج الموقف. ثم الى الطريق العام. وأخيراً وصل الى موقف سيارات صغير يقع على قمة خليج الميناء. وأوقف السيارة تجاه البحر الواسع.. أشعل سيكارة بعد أن قدم لها واحدة ورفضت. عندما تكلم كان صوته خشناً متصلباً:

«لماذا فعلت هذا؟».

«أعتقد أنك تعني.. رحيلي؟».

«طبعاً!».

«أنت تعلم لماذا، لو فكرت جيداً بالأمر.. لم تكن لديك النية مطلقاً لمقاضاة تشارلي! كنت تستخدم هذا كتهديد لي لتبقيني في قصرك!».

أدارت وجهها الى الخارج غير قادرة على إكمال الكلام في هذا الأمر.

«ألم تفكري مطلقاً لماذا مضيت الى هذه الدرجة لأبقيك هناك؟ لورنا.. اللعنة عليك.. أنظري إلي!».

لكنها لم تلتفت، واستمرت تنظر الى الخارج.

«لقد قلت لي لماذا تستبقيني هناك.. أتذكر؟ لم أكن بحاجة للتفكير!».

«وهل صدقتني؟».

«طبعاً صدقتك! كنت تعني ما تقول!».

فسحب أنفاس سيكارته بعمق، وقال بغضب:

«لو كنت أعني ما أقول، هل تتصوري أنك كنت

ستبقين..».

وزمر أنفاسه مرة أخرى:

«لورنا.. لقد رغبت بك.. والله يعلم كم! هل تتصورين أنني كنت ساحرم نفسي منك لو كنت أؤمن بأن.. لديك الخبرة؟».

«ماذا.. ماذا تعني؟ أوه.. لست أفهم كل هذا!».

«لا.. أنت لا تفهمي!».

وأحنت رأسها لينسدل شعرها فوق كتفيها مظهراً عنقها عارياً.. فصاح مخنوقاً.. وأحنى رأسه ووضع فمه عند مفرق شعرها.

«أوه يا إلهي! لورنا! ماذا فعلت بي!».

ثم استقام، فرفعت رأسها لترى شوقه في عينيه فتمتمت بانكسار:

«ريكاردو..؟ أنت لا تتكلم بكلام مفهوم!».

«لا؟ وماذا تريدين أن أقول.. من الواضح المؤلم ما هو خطبي!».

هناك الكثير مما حدث.. الكثير من الأخطاء.. فكيف يمكن لشيء جيد أن يخرج من كل هذا؟ وأكمل:

«حسناً.. تستحقين تفسيراً أوضح. لكن أولاً قولي لي أرجوك أنني لست بمخطيء.. وأنك تحبيني ولو قليلاً.. أليس كذلك لورنا؟».

«ولماذا أعطيك هذا الرضى؟».

«بورديوس! من أجل هذا!».

وجذبها إليه، والتصق فمه بشعرها بشوق ورغبة.. عواطفه دمرت كل تحفظه.. عانقها من قبل، لكن لم يكن بمثل هذا الإحساس أبداً. وجسده يرتجف بين ذراعيها، أصابعه تسحب الدبابيس من شعرها لينسدل لماعاً ذهبياً حول كتفيها، ثم دفن وجهه في نعومته:

www.elromancia.com

«هذا ليس كأي شيء أحسسته من قبل.. أنا أحبك! لقد كدت أجن خلال الأسابيع الماضية وأنا لا أعرف أين أنت. ومع من!».

«وهل كنت تبحث عني؟».

«أبحث عنك! منذ أول يوم غادرت فيه القصر!».

«لكن.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا لا تتركني وشأني؟ لديك جوانيتا..».

«لا تذكري إسمها أمامي! لقد اكتشفت أن لا شيء مشترك بيننا! لقد تكلمت معك.. أليس كذلك؟ يوم سفرك».

فهزت لورنا رأسها بالإيجاب.. فأكمل:

«لقد كشفت لنا لويزا أنها زارتك.. ومن الغريب أن تغادر المنزل قبل عودة أمي.. فقابلتها وانتزعت الحقيقة منها!».

وللحظات أحست بالشفقة على جوانيتا. لقد آمنت أن لديها كل شيء.. لكنها لم تحصل على شيء.

«وكيف وجدتني؟».

«أولاً يجب أن أشرح لك بعض الأمور ويجب أن أبدأ من ذلك اليوم في مدريد يوم كدت أدهسك بسيارتي.. كنت غاضباً لكنني عرفت أنك مختلفة عن كل النساء اللواتي أعرفهن. فانجذبت إليك وظننت أنك انجذبت إليّ. فبدأت تحرياتي عنك. وعندما اختفيت كدت أجن، فذهبت الى البانسيون وقال لي صاحبه أن إسمك السنيورينا تيرانت.. لورنا تيرانت! وعندما واجهتك في الكاستيلو أحسست أن هناك شيء من الغموض حولك، وعندما أخبرتني جوانيتا ما حدث معك في منزل دالبوا زاد فضولي».

«لكن ذلك لم يكن صحيحاً».

«أعرف هذا الآن. لكنني في ذلك الوقت كنت مهتماً

بالوقائع كما أراها. وذلك زاد من بؤس صورتك أمامي. لكن عندما وجدتك مصابة ومستلقية لا حول لك ولا طول أحسست أنك أكثر من وحيدة.. وأن رغبتي بك أكثر من رغبة في جسدك! لذا قررت أن ألقنك درساً. ولأكتشف ما إذا كنت سوداء كما صوروك! عندما لمستك.. أحسست أنك لست المرأة التي ظننتك.. وكنت مضطراً أن أبقيك في الكاستيلو، كي أراك، أكلمك، أقضي الوقت معك.. وكانت هذه تجربة جديدة لي.. بعد أن تألمت في الماضي»!

«وهكذا جعلتني مربية لإستاليتا».

فابتسم:

«مجرد إلهام.. صدقيني! هل أخبرتك جوانيتا عن جانيت؟».

«أجل».

«إذن ستفهمين مشاعري تجاه تشارلي. لكن هذا لم يعد مهماً الآن.. ما يهم هو مستقبلنا يا لورنا! هل تحبيني؟».

«أجل أحبك.. لكنني لن أعيش معك أبداً!».

حتى في العتمة شاهدت تعبير وجهه البائس.. وتمتم:

«ديوس! لماذا يا لورنا؟ لماذا؟».

«أنا من البشر.. وأريد بيتاً.. بيتاً حقيقياً بعلاقة حقيقة.. وأطفال!».

«وهذه أشياء لن أستطيع منحك إياها؟ هل الأمر هكذا؟».

«أتستطيع؟».

«بالطبع. إذا كان الكاستيلو لا يعجبك نستطيع العيش في مدريد و..».

«ريكاردو.. ريكاردو.. لا تقل شيئاً!».

ووضعت يدها على أذنيها.. فبدا عليه الرعب:

www.elromancia.com

«هل زواجك مني منفر لهذه الدرجة.. هل ينفرك هذا الجرح؟ حتى لو أنك تنكرين هذا؟».

ولم تصدق أذنيها:

«الزواج؟ أتتحدث عن.. الزواج؟».

«وما غيره؟ يا الهي لورنا.. أتظنين أنني عنيت شيئاً آخر؟».

«هذا ما ظننته».

«أنت مجنونة! مجنونة! لكنني أستحق.. سامحيني.. سامحيني!».

لفت ذراعها حول عنقه، تتعلق به بائسة، الى أن قال بصوت مختنق:

«لورنا.. أنا رجل. وأريدك. ومن المستحيل أن أتركك!».

«وأنا أحبك.. وسأتزوجك.. متى شئت!».

«قريباً.. يجب أن يكون هذا قريباً. أنا بحاجة لإجازة وسنأخذها معاً. هه؟».

«أوه.. أجل.. أجل. لكن كيف وجدتني؟».

«عندما وجدت إستاليتا الرسالة إتصلت بي على الفور.. ولسوء الحظ لم أكن في مكتبي. ولم أعرف بالأمر حتى اليوم التالي. ولو وجدتني يومها لتمكنت من اللحاق بك الى المطار.. وحصلت على تأكيد من المطار أنك سافرت في الليلة السابقة الى بوسطن وحصلت على عنوانك من عائلة دالبوا.. عندها تحدثت ألفونسو ثانية حول ما حدث له معك. كنا لوحدنا.. ولم يتحمل كثيراً.. كما لم أستطع إبعاد يدي عنه».

واستكانت لورنا الى صدره أكثر:

«تابع!».

«هنا في بوسطن أخبرتني صاحبة المُلك أنك تصرفت

بغرابة لأنها أعطت إبنتها غرفتك.. بعد ذلك، ضعت. ثم أخذت أتجول من وكالة توظيف الى أخرى في طول المدينة وعرضها، محاولاً إيجادك. ولم أجد الوكالة التي وظفتك عند عائلة مورلي سوى اليوم. فقصدت الشقة على الفور. وكانت السيدة مورلي مهذبة ومتفهمة، مع أنني لا أظن أنها صدقت بأنني كونت.. حتى الآن لا أصدق أن الإنتظار قد انتهى. فلا تفعلي بي هذا مرة أخرى، لا أظن أنني سأتحمل المرور بهذه التجربة ثانية».

رفعت لورنا رأسها لتقبل خده:

«وإستاليتا، ماذا ستقول؟».

فابتسم، وقال:

«إستاليتا ليس لديها أدنى شك في مشاعري نحوك.. لقد كنت كالمهووس عندما زرت الكاستيلو في الأسبوع الماضي».

«هل ستمانع؟».

«لا أظن. فهي طفلة وحيدة مستوحشة.. وسيكون من الرائع أن يكون لها أشقة وشقيقات لتعتني بهم!».

إبتسامة لورنا أظهرت غمزاتها على خديها.. وتمتمت:

«يبدو الأمر رائع بالفعل».

فرد واعداً:

«وسيكون هكذا».

أدار محرك السيارة، وأحست لورنا بالسعادة لأن تترك كل شيء بين يديه.

www.elromancia.com